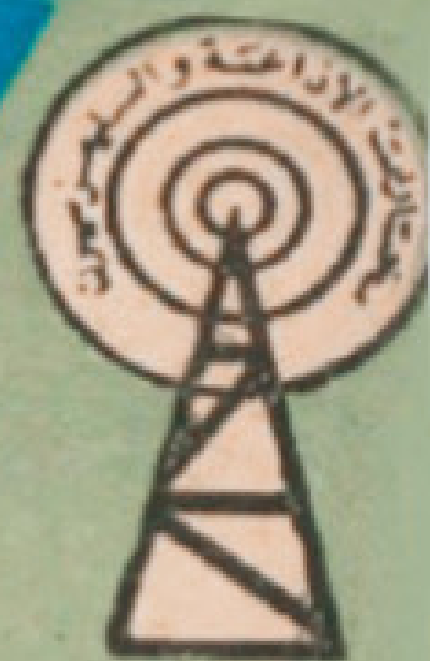




من الشرق والغرب



دراسات
في

الأدب الأسوداني



بقلم
الدكتور جمال الدريه الرصاوي

١٩٦٣ م



هَذَا الْكِتَابُ

يتناول الكتاب طائفة من
الدراسات عن طبيعة الادب
السوداني واعلام الشعر في
القطر الشقيق ، كما يتناول
موقف الشعراء العرب من
السودان كاحمدشوقي وحافظ
ابراهيم و خليل مطران ، مع
فصول عن الاغراض التي
عالجها الشعر العربي في
السودان توثيقا للروابط بين
الشعبيين العريقين .

نبذة عن المؤلف

تخرج في كلية الاداب
بجامعة القاهرة وحصل على
درجة الليسانس والماجستير
في الادب المعاصر والماجستير
في التحرير والترجمة والصحافة
ودرجة الدكتوراه بمرتبة
الشرف . وقد نشر له أكثر من
ثلاثين كتابا في الادب والاجتماع
والعلوم السياسية

الدار القومية للطباعة والنشر

١١ شارع الصحافة بالقاهرة

الثمن ٢٠ قرشا

من الشرق والغرب

دراسات
في الأدب السوراني

بمقلم
الدكتور جمال الدين الرمادي

مقدمة

لعل أبرز المظاهر السياسية في العصر الحديث الاتجاه الواضح بين نحو الإيمان بالقومية العربية والدعوة إلى توطيد الصلات وتدعيم الروابط بين الشعوب العربية جمعاء ، لا بينها من مقومات تاريخية وسياسية وحضارية تشترك فيها جميعاً وتكيف ماضيها ، وتشكل حاضرها ، وتحدد مستقبلها .

فالقومية العربية أصبحت ديناً تؤمن به الشعوب العربية جمعاء ، والقومية العربية أصبحت عقيدة تؤمن بها وتتطلع إليها الجماهير العربية في شق الأقطار والأمصار فقد قاست آلاماً متشابهة ومرب بمحن مماثلة ، وكانت نهياً مستباحاً للمستعمر العاشم ، والمستبد الظالم ، وفرض عليها سطوته وغلظته ، ونشر فيها طغيانه وعدوانه ، غير أن ليل الظلم لم يلبث أن انقشع وأشرقت شمس الحرية على الشعوب العربية ، وكانت انتفاضة الجيش العربي في مصر عام ١٩٥٢ إيذاناً بزوال الاستعمار من الشرق العربي ، وسار الاستعمار في طريقه إلى حتفه من هذا التاريخ . وهوت صروح الطغيان على الأرض كأوراق الخريف إذ تعبت بها يد الريح في وجه الفضاء العريض ، وأخذت هذه القيود الحديدية ، وهذه الأصفاذ الفولاذية تتحطم شيئاً فشيئاً ، وشرع الشرق العربي يلتقط أنفاسه ، ليتنفس الصعداء بعد عبء جسيم جثم على صدره ، وحمل قاذح ناء به ظهره أعمواً طوالاً .

لقد أصبحت القومية العربية عقيدة راسخة في قلب الأمة العربية . والسودان الشقيق تربطنا به منذ أبعد الحقب والأزمان صلات وثيقة ووشائج متينة منها صلات الدين والعروبة ، ووشائج الدم والنسب ، وروابط الجوار والألفة وأواصر الصداقة والعربي ، كما كان للنيل فضل عظيم في تدعيم ما بين مصر والسودان من

علاقات . وتوطيد ما بينهما من صلات ، كما كان شريان الحياة ووريدها بالنسبة إلى البلدين الشقيقين والقطرين الحبيبين .

فالسودان قد جمعه بالجمهورية العربية المتحدة صلات وصلات ، والسودان عضو من أعضاء جامعة الدول العربية ، والأمم المتحدة .

وقد أظهر السودان في كثير من المناسبات الوطنية حرصه على مصلحة الشعب العربي في مصر ووقوفه معه إزاء الاستعمار وأعوان الاستعمار .

وكانت دعوات الحرية يرنّ صداها في كل من البلدين الشقيقين قوياً مجلجلا يهز عنان السماء ويشل عروش الاستبداد ويزلزل صروح الرجعية ، فزادت الشعوب العربية تمسكاً بحقوقها الوطنية ، ووقفت في ميدان الكفاح راسخة الأقدام كالجبال لا تعصف بها الأنواء ، ولا تزلزلها الأهوال .

والسودان عضو في مؤتمر الشعوب الآسيوية الأفريقية ، وقد أسهم بنصيب موفور في التعاون بين المجموعة الآسيوية الأفريقية التي يرجع ظهورها إلى انعقاد مؤتمر باندونج فيما بين ١٨ و ٢٤ إبريل عام ١٩٥٥ .

وقد أصدر هذا المؤتمر في جلساته في باندونج والقاهرة قرارات عدة وتوصيات شتى بشأن التعاون الثقافي ومنها إعادة العلاقات الثقافية بين الدول الآسيوية والإفريقية التي كانت قد توقفت خلال القرون الماضية تحت ضغط الاستعمار الأجنبي كما أوصى بإنشاء الجامعات والمعاهد وتبادل المعلومات وإبرام المعاهدات الثقافية .

وكان السودان من الدول السبّاقة إلى تحقيق هذه التوصيات كما كانت الجمهورية العربية المتحدة درعاً واقية ضد الاستعمار وأعوان الاستعمار .

وفي هذا الكتاب الذي تقدمه للقارئ اليوم دراسة عن الأدب في السودان وهي محاولة للتقريب بين السودان والجمهورية العربية المتحدة وقد جمعت لهما لغة واحدة وأدب عربي متين يعبر عن خلجات النفوس ، ويفصح عن مكنونات الصدور ويصور ما يجيش في القلوب من آمال وتطلّعات .

جمال الدين الرمادي

المدائح النبوية في الأدب السوداني

المدائح النبوية فن جديد من فنون الشعر ظهر بظهور الإسلام وتردد على
السنة الشعراء في صدر الإسلام ثم حاكاه الشعراء اللاحقون حتى العصر الحديث
ووجدوا في نظمه لذة ومتعة لأنه يرضى أرواحهم ونزعاتهم الدينية واتجاهاتهم
الصوفية من ناحية ويرضى مزاجهم الفنى وحاستهم الأدبية من ناحية أخرى .

وقد كان الناس يعتبرون رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولا يزالون يعتبرونه
حتى اليوم .. فضلا عن مكانته الدينية السامية ومقامه الروحي العظيم — أفصح العرب
لهجة وأبلغهم حجة وأعذبهم كلاما وأعزهم حكما وأوجزهم عبارة وأعلمهم بلغات
قبائل العرب وأقدرهم على مخاطبة كل قبيلة بلهجتها وكانوا يجدون في أحاديث
رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولا يزالون يجدون فيها — الدر والجوهر الكريم
ويجدون في مجازة ما لم يجدوا عند غيره من البشر كقوله عند احتدام الحرب
(الآن حمى الوطيس) وقوله في الأهبة للحرب (يا خيل الله اركبي) وقوله
(مات حتف أنفه) وقوله (هذا يوم له ما بعده) .

وقد بهر هذا الدين الحنيف ... بهذه البلاغة المتدفقة وهذا البيان المبين ... الشعراء
ففاضت ألسنتهم بمدحهم وانطلقت أشعارهم بتعجيده ومن هؤلاء الشعراء حسان
ابن ثابت أشعر شعراء رسول الله الذي ينتمى إلى بني النجار من قبيلة الخزرج
وهي إحدى القبيلتين الأختين اللتين سميتا بعد هجرة النبي إلى المدينة بالأنصار كما
مدح الرسول عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير بن أبي سلمى المزني
الذي أسلم أخوه بجير ودعاه إلى الإسلام فأبى عليه وسمه وهجاه وكان الإسلام قد
نشأ في عامة قبائل العرب فطفق يستجير بقبيلة بعد قبيلة وكلها لا تجيره على رسول
الله فلما اشتد عليه الطلب وأرجف الناس بأنه مقتول ، عزم على الإسلام فقدم
للمدينة واستجار بأبي بكر رضى الله عنه فجاء به إلى رسول الله وأسلم وأنشده
قصيدته اللامية المشهورة :

بانت سعاد قلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

ومنها قوله : نبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول
فقد أتيت رسول الله معذرا والعذر عند رسول الله مقبول

فرضى رسول الله عنه وخلع عليه بردته ، فباعها ورثته من بعده لمعاوية
بعشرين ألف درهم ثم بيعت للخليفة المنصور بأربعين ألفا .

كما مدح البوصيرى النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة من درر قصائده وهى
قصيدة « البردة » المعروفة التى ألف على غرارها أحمد شوقى أمير الشعراء قصيدة
أخرى تسمى (نهج البردة) وتتفق نهج البردة مع البردة فى الموضوع وفى الوزن
والقافية بل وفى طابع الأسلوب أيضا ، وكلتاها فى مدح الرسول عليه الصلاة
والسلام ، وكلتاها على وزن البسيط متراكبة القافية ميمية الروى مضمومة المجرى
وكلتاها تصطنع البديع .

وقد نظم البوصيرى قصيدته فى القرن السابع الهجرى بعد أن أصبح
مريضا عاجزا أبطل الفالج شقه وانقطع الرجاء فى شفائه . . نظمها توسلا إلى
الرسول عله يفرج عليه كربته ويزيح عنه غمته حتى رأى النبي صلى الله عليه وسلم
فى منامه فمسح على وجهه بيده المباركة وألقى عليه بردة فاتتبه ووجد نفسه فى نهضته
فقام واستهل قصيدته بقوله :

أمن تذكر جيرانى بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضم
أما شوقى فقد ألف نهج البردة تذكرا لحج الأمير عباس حلمى الثانى عام
١٣٢٧ هـ وتقربا إلى الرسول الكريم واستهلها بقوله :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي فى الأشهر الحرم
رمى القضاء بعينى جؤذر أسدا يأسا كن القاع أدرك ما كن الأجم
ولقد امتلأ الشعر السودانى بكثير من اللدائح النبوية وذلك لأن الإسلام
عندما دخل السودان وجد نفوسا تؤمن به إيمانا شديداً وتتعلق به تعلقا عظيما
وتتحمس تحمسا ترخص فيه الدماء وتهون معه الأرواح وتشرع فيه السيوف
إما إلى الانتصار وإما إلى الموت والفناء ووجدت فى السودان مذاهب دينية

متعددة ومدارس صوفية تسعى إلى نشر الدين والزهد في الماديات والتمسك بالروحانيات ومن أهم الآثار الاجتماعية التي ترتبت على نشر العقيدة الإسلامية أن برزت تجمعات دينية في مظاهر شتى منها الاندماج القبلي واتحاد القبائل السودانية كلها وصيرورتها وحدة لا تتجزأ وجسماً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، ومنها التجمع الصوفي الذي كان نواته شيخ القبيلة وكان مقره نادى الأفراد جميعاً . ثم انتشرت الطرق الصوفية ورحل الناس من مختلف أنحاء السودان إلى الزوايا للاتصال بالشيخ وتلقى الطرق خلق ذلك جواً دينياً صافياً وبيئة دينية لعبادة الله الواحد القهار والتسبيح بفضائل نبيه المختار ، وأكثر الصوفية المتأخرون من المدائح النبوية الفصيحة ، ونظموا السيرة النبوية وبعض القصص الدينية كقصة الاسراء والمعراج وغزوات النبي . . . في شعر فصيح . وأخرج السيد محمد عثمان الميرغنى ديوان (النور البراق في مدح النبي المصداق) وأخرج السيد أحمد بن إدريس ديوان (رياض المديح) كما أخرج الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم ديوان (روض الصفا في مدح المصطفى) والشيخ محمد الأمين أبو قرين ديوان (الجواهر الزكية في مدح خير البرية) . وعارض الشيخ الطاهر المجذوب بيت البوصيرى (أمن تذكر جيران بنى سلم) فقال :

هل ضاء برق دجى الأسحار من إضم أم نور ليلي بدا ثغرا لمبتسم
أم تلك عين المها تمشى على وهن ترحى بلحظ عيون كل ذى سقم
والشيخ الأمين محمد الضير رئيس علماء السودان الأسبق قصيدة يمدح بها الرسول والطريف في هذه القصيدة أنه ضمنها أسماء سور القرآن على حسب ترتيب المصحف الشريف وتمتاز فضلاً عن نزعتها الصوفية بطابع فنى دقيق استطاع الشاعر أن يصوغه فى قالب شعري جذاب فقال :

يارب صل على من كان فاتحة بكر الوجود به عمرانا اتصلا
ما للنساء كمثل المصطفى ولد إذ منه مائدة الأنعام والعقلا

أعرافه المسك والأنفال وافر لمن به توبة كي تذهب الوجلا
ففي هذه الأبيات الثلاثة استطاع الشاعر أن يذكر أسماء الفاتحة والبقرة
وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والأعراف والأنفال والتوبة وهذه قصيدة
فنية ما في هذا شك تستحق الذكر والتسجيل

وقال الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم شيخ علماء السودان يمدح الرسول
بقصيدة عصماء استلهاها بالغزل على طريقة القدماء فقال :

ليلى بدت لما أضاء الكوكب فمحت ضياء وزال عنا الغيب
واستقبلت قمر الزمان فساله من حسنها الكلف الذي لا يذهب
وتفردت في حسنها ودلالها وحوث من الأوصاف ما يستغرب
فزاحمت عشاق فرد جمالها كل لحسن وصالها يتطلب
لما رأتهم عاكفين يبابها وعليهم ثوب التذال يسحب
قالت لهم حق أطالع حالكم وأرى حقيقة ما إليكم ينسب
والعشق صعب لا يطيق حروقه إلا الذي لعذابه يستعذب
وأنا بجاهك يا رسول الله أر جوا أن أكون من الألى لك حيوا
وتحققوا بكمال عشقك وامتنا روا من ضياك فأكرموا وتقربوا
أنت الذي يجمع المؤمل كل ما يرجوه منك وبر جودك أقرب

والشيخ الطيب أحمد هاشم مفتي الديار السودانية السابق قصيدة يشطر فيها
قصيدة لسان الدين بن الخطيب ويمدح فيها الرسول وهي لا تقل عن قصيدة ابن
الخطيب ورعا وتقى ولا تنقص عنها أصالة وفناً ، جاء فيها :

يا شافع الخلق المذهب خلقه يا خير مؤتمن وخير نصيح
أقرضت فيك الله صدق محبتي لأنال يوم العرض كل مريح

تاجرت فيك الله ربي مادحا أكون تجرى فيك غير ريش
حاشا وكلا أن تخيب وسائلي أو أن أبوء بصفقة المنفروح
أو أن أكون مبعداً عن شافعي أو أن أرى مسعاى غير نجيح
إن كان وجهى سودته قبائح يوماً فوجه العفو غير قبيح

وقد حركت الأعياد النبوية في نفوس الشعراء كثيراً من العواطف وأثارت
فيها شتى الأحاسيس فنظموا القصائد الجيدة في مدح الرسول ووصف ليلة مولده
بأنها كانت حداً فاصلاً بين الظلمة والنور والجهل والعرفة والليل اللطم والصبح
المشرق النير فقال السيد عثمان هاشم في إحدى قصائده النبوية :

بجلال ذكرك تفخر الأعوام وبحسن يومك تزدهى الأيام
يا ليلة الميلاد حسبك مفخرا نور عليه من النبي تمام
ضامت به الدنيا وأزهر نورها بالمسلمين وأشرق الإسلام
شرفاً بأحمد خير من وطئ الثرى وله على السبع الطباق مقام
من قد هدى الله العباد به ولو لم يهدم لعل الضلال أقاموا

ومن أطرف القصائد التي كتبت في مدح الرسول قصيدة الشيخ محمد المجدوب
التي يمدح فيها النبي ويستهلها بكلمة (سلام) ويزجي فيها السلام إلى كل طرف
من أطراف الرسول فيقول :

سلام على رأس الرسول محمد لرأس جليل بالجلال معمم
سلام على وجه النبي محمد فيا نعم وجه بالضياء ملثم
سلام على طرف النبي محمد لطرف كحيل أدعج ومعلم
سلام على أنف النبي محمد لأنف عديل أنور ومقوم

وقال الشيخ موثر إبراهيم أحد علماء السودان وينتمى إلى قبيلة (الجعليين)
الشمهورة يمدح رسول الله :

النبي الرسول رحمة ربي الذي قد حياه أكل عصمة
ودعاه إلى الوصال إليه ودعاه وقومه خير أمة

واصفاه وخصه واجتبه شافعاً لدى الأمور المهمة
وحماه وفيه أودع سرّاً ليس يدري وكم به زاد نعمة
صلوات من الكريم عليه وعلى آله الكرام الأئمة
مع سلام به تنال اتصالاً مع دوام الرضا وحسن التمتع

هذه هي نعمات من اشعر السوداني في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم
وهي نعمات عاطرة تفوح بالحب الطاهر والابتهال الصادق والولاء العظيم وتفصح
عن جوامع تخفق بحبه وتنفض بالتسبيح بحمد الله تعالى وحمده إذ أرسله الله
للناس شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .



معلقة نسو دانسيه

هي قصيدة سارت بها الركبان . . . ودارت على الألسنة في كل مكان . . .
واعتبرها بعض النقاد في السودان في شهرة المعلقات ألا وهي قصيدة (الحرب صبر)
التي نظمها الشاعر محمد عمر البنا في حروب المهدي في بلاد النوبة .

وبرغم أن هذه القصيدة تقل في عدد أبياتها عن المعلقة إلا أنها تحمل طابع
المعلقة في وصف البطولة والبسالة والاقدام والتعرض للمواقع والحروب . فإن
القارئ لهذه القصيدة يكاد يسمع بين أبياتها قعقة السلاح ورنين السيوف
وصهيل الخيل وطلقات الرصاص ، وتلوح أمام عينيه صور البطولة صادقة معبرة
(مثيرة مؤثرة) تملك الشاعر وتصل إلى شغاف القلوب .

وصاحب هذه القصيدة هو الشيخ محمد عمر البنا وهو أحد أعلام الأدب
والشريعة في السودان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والرابع الأول
من القرن العشرين وقد ولد في قرية رفاعة في بيت ينتمي إلى قبيلة الجعليين وكان
منذ نعومة أظفاره ميالا إلى الأدب حريصاً على الاطلاع لا يدخر وسعاً ولا يألو
جهداً في سبيل العكوف على دواوين الشعراء وحفظ شعر الفحول منهم وتبوع
دراسة الأدب العربي في مظانه الأولى عند الجاحظ والأصفهاني وابن عبد ربه
وغيرهم من مؤرخي الأدب في عصوره الزاهية .

وقد حضر محمد عمر البنا إلى مصر للاتصال من معين الثقافة الدينية في الأزهر
فلما أتم دراسته في المعهد الشريف عاد إلى السودان حيث كان من أنصار المهدي
ومن الداعمين له المناهضين عن سياسته المصوريين لجهاده وبلائه في سبيل بلاده فنظم
هذه القصيدة المعروفة وهي قصيدة (الحرب صبر) فكانت درة لامعة في جبين
الأدب السوداني بل في جبين الأدب العربي على العموم وجاء في مطلع هذه
القصيدة :

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت في شأن الإله حياة
الجن عار والشجاعة هبة للمرء ما اقترنت بها العزمات
والصبر عند الناس مكرمة ومقدام الرجال تنهيه الوقعات
والافتحام إلى العدو مزية لا يستطيع لنيلها غايات

وهذه الأبيات الأولى تصور شيئاً من فلسفة الحروب التي يجب أن يدركها
الجندي في ساحة القتال فلا بد من الصبر ولا بد من الثبات والدكرى للانسان
عمر ثان . والوصمة الكبرى في جبين الجندي هي الجبن والخوف ، والغرة البيضاء
في جبين الجندي هي الشجاعة والإقدام والصبر على الشدائد والملمات ومن
أساطير العرب أن الوباء لقي جيشاً فسأله القائد « فيم أنت مسرع إلى بغداد ؟ »
قال « لأحصد خمسة آلاف نسمة فلما قفل الوباء راجعاً لقي الجيش مرة ثانية
قال القائد ساخطاً « إنك خدعتني لقد حصدت خمسين ألفاً بدلاً من خمسة
آلاف » فقال : « لم أحصد إلا خمسة آلاف أما الجزع وفراغ الصبر فقد قتل
البقية الباقية » .

قال صبر إذن من أعظم الميزات التي يجب أن يتعلم بها الجندي في ميدان القتال
ولا يتخلل عنها لحظة واحدة سواء في مقاتلة العدو أو مجابهة الأحداث . والصبر
هو الفضيلة التي تغني بها شاعرنا محمد عمر البنا في قصيدته فجعل ذكره
مطلماً لها ..

وتتضمن هذه القصيدة كذلك لونا من فلسفة الحياة والموت فلا خير في حياة
رذيلة يكتنفها النذل ويطويها الاستعباد ولا خير في حياة لا ينعم المرء فيها بنفسه الحرية
والاستقلال و « لكل أجل كتاب » و « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم
في بروج مشيدة » وإذا كان لا مفر من الموت ولا مهرب من الهلاك فإن الموت
في حومة الوغى وفي سبيل الأهداف القومية خير من الموت على الفراش .

والعمر في الدنيا له أجل متى يقضى فليس تزيد خشيات
فعلام خوف المرء ان غشى الوغى نفس الكريم وحانت الأوقات

والفخر كل الفخر يبع النفس لا العلى وأجرها الجنات
إن الجهاد فضيلة مرضية شهدت بمعكم أجرها الآيات

وقد رسم لنا الشيخ محمد عمر البنا في قصيدته كذلك صورة صادقة لما يدور
في المعركة إذا حمى وطيس القتال إذ تسيل الدماء وتتقطع الأشلاء وتتصاعد
الأرواح إلى ربها تشكو بلواها من ظلم القوم الظالمين .

قوم إذا حمى الوطيس رأيهم	شم الجبال وللضعيف حماة
ولباسهم سرد الحديد وبأسهم	شهدت به يوم اللقاء . . الغارات
ركبوا الجياد وغادروا شلو العدا	رزق النسور ولحمهم أقوات
والخيل ترقص بالكفا كأنها	تختال في ميدانها فتيات
فأثرن تقع الموت في عرصاتهم	وأغرن صبعا إذ علت أصوات
وذباب أسياف المنية فوقها	رعفت دما وجلأؤها الهامات
والأرض سالت بالدماء وما بها	غير الجماجم والشعور نبات

ولا شك أن هذه الصورة تبين لنا في وضوح وجلاء فظائع الحرب
الطاحنة . وهي لا تقل في صدقتها عن تلك الصورة الأدبية التي رسمها الشاعر
أبو تمام لفتح عمورية . تلك المدينة الحصينة التي أعيت الملوك والأفيال غير
أن الخليفة المعتصم أراد أن يجتث منها أسس الفساد والطغيان وهب جيشه هبة
واحدة لإتقاذ البلاد من براثن الظلم والاستعباد .

وقد صور أبو تمام يوم الفتح تصويراً يهز أعماق القلوب كما صور الحرب
الطاحنة تصويراً يملأ الأنظار والأسماع جميعاً وقد حاول السيد محمد عمر البنا
أن يبلغ شأو أبي تمام في الإبداع فكان له منه نصيب ملحوظ .

وقد بين الشاعر محمد عمر البنا في قصيدته أن المهدي لم يشن الحرب
الضروس رغبة في إزهاق الأرواح وإراقة الدماء ، وإنما من أجل تدعيم أركان
الدين وقطع دابر الفتنة فقال :

فانهض إلى الخرطوم إن بسوحي أهل الغواية والمفاسد باتوا
بطروا وراودوا ثم صدوا معنرا في الله لم تعرف لهم رغبات
وتكبروا وعتوا عتوا فائقا والله أكبر والسيوف هداة
نبذوا الشريعة من وراء ظهورهم عن دينهم شغلهم الشهوات
الله أكبر إن يدوم صنهم هذا وأنتم للأنام رعاة
وقد دعا الشاعر إلى فعل الغزاة الأوائل في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم
فلم تكن قوة تصرفهم عن تحقيق أغراضهم أو تحول بينهم وبين أمانهم بهما
طل الأمد وتوالت الأحداث وقد كانت حصون خير من أمتع حصون اليهود
وكانو يستمتون في الدفاع عنها إيمانا منهم بأن هزيمتهم أمام محمد قضاء أخير على
بنى إسرائيل في بلاد العرب وتتابع الأيام فبعث الرسول أبا بكر إلى حصن
كي يفتحه فقاتل ورجع ولم يكن الحصن قد فتح وبعث الرسول عمر بن الخطاب
مرة أخرى على جيش قوى العناد والعدة إلا أن حظ عمر بن الخطاب كان كخط
أبي بكر فدفع الرسول بالراية إلى علي بن أبي طالب وقال له : خذ هذه الراية
فامض بها حتى يفتح الله عليك وهضى على بالراية فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله
فقاتلهم فضر به رجل من اليهود فطاح ترسه فتناول على بابا كان عند الحصن فترس
به فلم يزل في يده يقاتل حتى فتح الحصن وتم النصر للمسلمين وقد راقى هذه
الغزوة الشاعر محمد عمر البنا فأراد أن يتخذها المسلمون مثالا أعلى في الصبر
والجلاد والتضحية والفداء وبذل النفس والنفيس فقال :

خذ جيشك المنصور لا تحفل بهم ولتقدمن أمامه الرايات
نفسوروا لهم الخنادق وافعلوا فعل الصحابة إذ أتت غزوات
فتحوا حصون الخيرين التي زعموا بأن حروبهم هلكات
تلك هي قصيدة محمد عمر البنا في حرب المهدي وهي كما قلت مشهورة اشتهار
المعلقات في السودان ومن القصائد النعرو والكلمات الأبيكار التي حفل بها تاريخ

الأدب الموداني فلاغرو أن يقف الشاعر أحمد محمد صالح بعد ذلك على قبر
شاعرنا يسكب الدمع المhton ويرسل الزفرات الحري ويقول :

أخفيت بدر أساطعا وسترت نجما ثا قبا وحجيت شمس نهـار
الله أكبر قد هوى الطود الذي قد كان منبع حكمة ووقار



الجمال في شعر سعيد العباسي

محمد سعيد العباسي شاعر سوداني ممتاز من شعراء الرعيل الأول . ساهم
بنصيب كبير وقسط موفور في النهضة الأدبية في السودان في العصر الحديث بما
نظمه من قصائد حسان ومقطوعات عذبة من الشعر الجميل الذي سطر اسمه
في سجل الخالدين .

وتحلى شعر سعيد العباسي بعبارة الجمال . . أينما كان وحيثما وجد . . وكذا تراءى
لعيه ولاح لبصره فسكب مسعره في ناظريه وقلبه جميعاً .

وأول ما بهر بصر العباسي جمال الطبيعة فهي الأم الرؤوم التي تربي الشاعر
بين أحضانها وارتوى بلبانها وسعرت بهجائها وبهرته بمفانها ومرابها وغذته
بقبلاتها ووداعتها .

تأمل وهو يقول في مليط وهي مركز من مراكز دارفور بالسودان وتبعد عن
مدينة الفاشر عاصمة المديرية بسبعين ميلاً تقريباً شمالاً ويستقيها واد عظيم يسمى
وادي مليط يأتيها من الغرب وينتشر فيه الزرع والفاكهة ومختلف ألوان النبات

حيالك مليط صوب العارض الفادي

وجاد واديك ذا الجنات من واد

فكم جالوت لنا من منظر عجب

يشجى الحلى ويروي غلة الصادي

أنسيتني برح آلامي وما أخذت

مننا عطايا بإيجان وإيحاء

كثبانك العفر ما أبهى مناظرها

أنس لدى وحشة رزق لمرتاد

فباسق النخل ملء الطرف يلثم من
ذيل السحاب بلا كد وإجهاد
كأنه ورملا حوله ارتفعت
أعلام جيش بناها فوق أطواد
وأعين الماء تجري من جداولها
صوارما عرضوها غير أغماد
والورق تهتف والأظلال وارقة
والرياح تدفع ميادا لياد
لو استطعت لأهديت الخلود لها
لو كان شيء على الدنيا لإخلاد

وهكذا كانت الطبيعة في ملبط وحيا ملهماً للشاعر وغذاء روحيا لقلبه تدفق
من قريحته الفياضة ومن روحه الموهوبة عذبا حلوا طروبا .

وبرغم أن العباسي يحفل بالعبارات القوية والألفاظ الرنانة ويحرص على نسج
العبارة وحبكة التركيب وانتقاء الألفاظ ونهج منهج الأقدمين في شعرهم في بعض
الأحيان ، إلا أن شعره يمتاز بحب جارف نحو الطبيعة وهيام شديد بها وافتتان
لاحد له بجملها وحب الطبيعة يمتلك نفسه امتلاكا ويستعوز على لبه استحوادا
ويشيع في آياته كالنغم الحلو الطروب ويتضوع من عباراته كالعبير العاطر والشذى
الفواح .

ومكان كأن كل نسيم
ناشر في رحابه طيب نشر
يهر العين منه مرأى أنيسق
من مروج قيد النواظر خضر
فهناك الرياض والماء يجري
بخرير تحت الرياض وقدر

وهناك النسيم يعث بالما
ء ويجرى والورق للماء تغرى
وهناك البهى من كل زهر
وهناك الشجى من كل طير
فإذا ما غنت بلابله قل
ت كرام أضناهمو طول هجر
بقعة شاكت هوى كل نفس
فصبا نحو حسنها كل فكر

ويعتبر الشاعر سعيد العباسى منشئ الطريقة السمانية بمصر والسودان وله
كتاب النغمات الإلهية السمانية وهو كتاب فى آداب الطريقة السمانية وأورادها
وفيه آداب للمريد السالك وكيفية الرياضة والتحدث فى الخلوات وكيفية الذكر
وبيان حضور الذاكر مع الله بقلبه . وألف قصيدة طويلة فى هذا المذهب تسمى
(النغمات السمانية) تظهر لنا فى صور الجمال باهرة وهى التى أعجب بها الشاعر
العباسى فرسمها فى شعره وخلعها على محبوبته فقال :

ألا يا حمام الركب قد زدتنى كربا
رويدك لا تذكر بتغريدك الركبا
وأيام أنس لم نمتع بحسنها
طويلا وقلبي لا يزال بها صبا
وإنى يوم البين من شغفى بهم
لبست برود الدمع من بعدهم ثوبا
فقا خبرانى عن رفاق توسطت
مطيم الهيجاء ينهينها نهبا
وقد رحلت منلى ولم يك عن قلى
ومذ غادرتنى لم يزل ربعى جدبا

حفظت لها عهد الهوى مذ عرفتها
فأركبني شوق لها مركبا صعبا
تطالبني الأيام كل جميلة
كأنى جانب في وجودي بها ذنبا
تزودت منها وهى عبرى بنظرة
فما تركت لى بعدها والهوى لبا
عجبت لذات الدل تحمل ردفها
وعهدى بها من حمل خلخالها غضي
لها أعين نجل إذا ما رنت بها
تدير عليك الزنجيلية الصلبا
سليمى اذكرى صبا بعهذك حافظا
له قصص فى الحب تستغرق الجعا
وقفت على ربح الأجنة خائرا

وقد أخذوا لى فى هواجسهم قلوبا
وهكذا كان العباسى يفتح نغماته السمائية بهذا الغزل العذب الجميل وهذه
الصورة الأحاذة من صور الجمال حتى يهيب النفوس لنغماته الروحية السامية
وشطحاته الغيبية الواسعة وكان فى شعره برغم زهده وورعه يحب الحب ويدعو
إلى تقديس الجمال والنشوة من السحر الشهى الحلال .

لله صبب معذب يهوى الحسان ويطرب
أضناء طول التصابي وذاك أصعب مركب
يزيد فى العين حسنا مهما قلى أو تجنب
قلبي رهين لأحكا م ذى الجمال المحجب
مولى تردى بحسن وبالمدلال تجلبب
يا حاكم القلب لى نهب لعينيك فانهب
فأى شىء أصدق من هذه الآيات وأى نفس لا تطرب لصور الجمال العذبة
هذه التى تفتن القلوب وتخلب الألباب .

الحنين إلى مصر في شعر العباسي

الشاعر محمد سعيد العباسي منشئ الطريقة السمانية بمصر والسودان شاعر
سوداني ممتاز . قام بنصيب كبير في إحياء الحركة الأدبية في السودان في الربع
الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين .

ورغم أن الشاعر سعيد العباسي ينحو في كثير من قصائده منحى الشعراء
العرب القدماء من حيث توشية الديباجة وجودة الرصف ومتانة التركيب وجلجلة
الألفاظ فإن شعره يفيض بعاطفة قوية زاخرة تتم عن نفس حساسة رقيقة وشعور
متدفق غزير .

والشاعر العباسي يحمل لمصر حباً عظيماً وشوقاً كبيراً ولديه ذكريات عذبة
لأوقات عزيزة قضها بين ربوعها فظلت حية لا تبرح خياله ولا تترك باله فبعد
استرجاع السودان ودخول الجيش المصري طلب القائد كوتشتر من والد محمد سعيد
العباسي إلحاقه بالمدرسة الحربية المصرية فالتحق بها في ٢٨ من مارس عام ١٨٩٩
وأدرج في عداد تلاميذ من السودانيين يبلغون ٤٥ تلميذاً . وبعد سنتين أصبح
أستاذ اللغة العربية بالكلية الحربية الشيخ محمد عثمان الزناتى الذى استعنه على
التعمق في دراسة الأدب وقرض الشعر . وكان كلما يجوس خلال أشعاره فكأنما
يمشي في الرياض الياقة أو يقطف أحلى الأزهار في جنان تجري من تحتها الأنهار
وكما قرأ غزله أحس كأنما رجع إلى أيام الشباب وتمتع بلحظاته وتذكر فيه الأيام
الغضة أيام كان يقضى لباتات الهوى بين أزهار الشعر ويستغنى بالأدب عن
الشراب . .

أتيح لسعيد العباسي أن يقضى فترة من العمر بين ربوع مصر فتركت هذه
الفترة في نفسه ذكرى عاطرة لا يذهب شذاها ولا ينضب معينها وقد آمن العباسي
بحب مصر واعتقد أن وادى النيل من شماله وجنوبه جزء لا يتجزأ مهما أرفجف
المرجفون ومهما تقول الكاذبون ومهما ألت الحوادث ومن ثم كان العباسي

شديد الحزين إلى مصر تلمس في شعره شوقاً إلى جوها وحنيناً شديداً إلى أرض
السكنانة فيها هو ذا يذكر أيامه الحلوة مع المروج الخضراء والتمائل الجميلة والضفاف
القاتنة والنيل المتدفق الجارى :

هل إلى مصر رجعة وبنا شو ق شباب غض وزهرة عمر
وليل قد أشرقت في ربها كلها في الأقدار ليلات قدر
ومكان كأن كل نسيم ناسر في رحابه طيب نشر
يهر العين فيه مرأى أنيق من مروج قيد النواظر خضر
فهنالك الرياض والماء يجري بنحرير تحت الرياض وقدر
وهناك النسيم يعث بالما ، ويجرى والورق للماء تغرى
وهناك البهى من كل زهر وهناك الشجى من كل طير
فاذا ما غنت بلابله قلت كرام أضناهمو طول هجر
بقعة شاكت هوى كل نفس فصبا نحو حسنهما كل فكر
رب هل تلك جنة الخلد إذ جلسنا إليها أم تلك جنة سحر
كنت في ذلك الحمى ناعم البال خلياً من كل قيد وأسر

فمصر في عين العباسى مهد الحب والجمال ومهبط السحر الحلال ومبعث
الذكريات العذبة ، طبيعتها تختلب الأبواب اختلاباً وتستلب العقول استلاباً فهى
بمثابة جنة من جنات الخلد وفردوس في فراديس السماء وهى قبل هذا وبعد هذا
كله موئل الحرية والأحرار تتعظم فيها القيود ويفك فيها الأسار .

ومصر في عين العباسى شمس ساطعة منيرة تنشر النور في كل مكان وتبعث
الحياة في كل قلب . ساحرة تسحر العقول ، جميلة تحير الأبواب . موحية للشعر
وملهمة للفن وقومها كرام لا يعرف البخل إليهم سبيلاً ولا يجد الشح إلى نفوسهم
طريقاً فلو أنهم ملكوا إرجاع الشباب إلى الشاعر لما توانوا لحظة واحدة . ففي
أحضان مصر شب الشاعر وترعرع ولذلك كان حريصاً كل الحرص على إحياء
مجدها العابر وعزها التليد وحضارتها العريقة وفي هذا يقول :

مصر وما مصر سوى الشمس التي بهرت بثاقب نورها كل الورى
 ولقد سعت لها فكنت كأنما أسعى لطيبة أو إلى أم القرى
 وبقيت مأخوذاً وقيد ناظرى هذا الجمال تلقنا وتحيروا
 فارقنا والشعر فى لون الدجى واليوم عدت به صباحاً مسفرا
 سبعون قصرت الخطا فتركنى أمشى الهوينى طالعاً متعثرا
 من بعد أن كنت الذى يطأ الثرى زهواً ويستهوى الحسان تبخترا
 ما إن وجدت بحبهم ما أشتهى هل من شباب لى يباع ويشترى
 ولو أنهم ملكوه ما بنحلو به ولأرجعونى والزمان القهقرى
 لأظل أرفل فى نعيم فاتنى زمن الشباب وفته متحصرا
 يا دار أين بنوك أخوالى الألى رفعوا لواءك دارعين وحسرا
 زانوا الكتاب فآحين وبعضهم بالسيف ما قنعوا فزانوا المنبرا

والعباسى شاعر يمتاز بتبحره فى اللغة وحرصه على أصولها والتزامه بقواعدها
 فى سبيل الوصول إلى دررها ومكنوناتها وأصدافها البراقة ولذلك كان يحمى
 لمصر غيرتها على العرية وحرصها على حفظ تراثها الخالد فلما أخرج الدكتور
 زكى مبارك كتابه عن رسائل إخوان الصفا شكر له هذا العمل الأول المجيد وقطع
 مخاطباً بنى مصر :

بنى مصر حياكمو ذو الجلال بعرف تحياته الزاكية
 وأسدى بإحسانه منعماً لكم كل صالحة باقية
 بكم عدت اليوم أم اللغات كحسنة فى حفلة صافية
 حملتم بمصر وبالشرقين رسالة آدابها العالية
 أجل وشأوتم بسحر البيان عباقرة الأعصر الحالية
 يان كذى البدر فى نعه يشق حشا الليلة الداجية
 بلونا الكرام فكانوا البناء وكنتم له حجر الزاوية

وأشيد العباسي في حفل تكريم أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة عصماء
من عيونته بين فيها فضل الشاعر المصري على دولة العلم والأدب واستهلها بقوله :

يا شاعر الضاد يا صناجة العرب	اسلم لدولة أهل الفضل والأدب
واستقبل العمر لا تعدوك حدثه	تبلى بها جدة الأيام والحقب
يا فخر مصر بماضيها وحاضرها	ومعد مصر بهذا الشاعر الأرب
ناضلت عنها فما خانت ولا وهنت	قواك في غير ما من ولا صخب
مواقف وقعها في كل نازلة	وقع السلامة في أحشاء مضطرب
قم ذكر القوم بالماضين ما فعلوا	واذكر لهم كيف كانت دولة العرب

ثم اختتم القصيدة بأبيات يبعث فيها شوقه إلى مصر ويذكر جميل أهلها
عليه، فقال :

واهاً لمصر وأوقات سعدت بها	لقد تقضت ولما أقض من أرب
يخونني الصبر إن غالبت دونكم	حر اشتياقي ودمعا جد منسكب
عندي لكم يد فضل لست أجدها	يد الزناتي مولى العلم والحسب
وحرمة الدين والآداب جامعة	ولا اعتبار لبعده الواد والنسب

أما قصيدته في ذكرى حافظ إبراهيم فقد عدد فيها العباسي الصلوات الوثيقة
التي تربط بين مصر والسودان ومنها اللغة العربية والدين والنيل والمصالح المشتركة
والمنافع المتبادلة وغير ذلك فقال :

بني مصر الكرام ولا برحتم	مثالا للشعوب العاملين
سعيتم نحو غايتكم كراما	وذتم دونها مستبسلينا
تحررتم ونحن بشرٌ حال	نكابده ونرسف موثقينا
وقد نزلت بنا محن شداد	أذاقتنا من البلى منونا
أذلت أنفُس الأحرار منسا	فباتوا بعد عزتهم قطينا
خذوا بيد البلاد فتقفوها	وكونوا من حرارتها المعينا
أعينونا فنحن بنو أيكم	لنا حق ونحن الأقربونا

لنا بالدين والفصحي ائتلاف وثيق ضم شعيفنا قرونا
ونيل فاض كوثره فأجرى بواديه الحياة لنا معينا

وهكذا كان العباسي يجد في مصر مبعث النور إلى السودان ومنبع الحياة
والأمل ، ولشد ما ثارت نفسه وأدركه الغضب في قوم يحجرون وراء الأجانب
ويصدقون الوعود الخلابية والأمانى الكاذبة ويتشدقون برطانة الدخلاء ويزعمون
أنهم من طينة غير طينة البشر .

قد رايت من بعضكم ما كان من أمر نكر
خلق كأن قد خلقوا من غير طينة البشر
زهوا علينا بوريقات أصابها عسر
أو طائرات بالسما ترمى الأعادي بازبر
ألا جرت أقدامكم لنا من الآي الغرر
كمثل شوقي إذ شدا والرافعي إذ نثر
إن لم تكونوا هم فما هذا تعالى والصعر
الفخر بالناب ولا ناب لكم ولا ظفر
والعزم جانب من ال أخلاق محمود الأثر

وهكذا كان العباسي يحب مصر حباً جما ويشعر نحوها بحنين زائد وشوق
شديد وكان يحمل لأهلها كل تقدير وتبجيل ويزهو ويفخر بهم في معرض الزهو
والفخر ، ويعتقد أن هناك رباطاً مقدساً بين شمل الوادي وجنوبه يجمع بين
أهل الشمال وأهل الجنوب بالدين واللغة وبالدم العربي وما إلى ذلك من روابط
هيات أن تبليها الأيام

فلا غرو إذن أن ينبض شعره بهذا الحنين القوي كأنه عاشق لوعه الحب
وهذه الشوق لمعشوقة فاتنة ملكت عنان قلبه وبلغ حبها أغوار فؤاده .



خطرات فی شعر عبد اللہ عبد الرحمن

الشاعر عبد الله عبد الرحمن شاعر سوداني ممتاز من شعراء الطليعة في السودان يمتاز شعره بمذوبة اللفظ وجلال المعنى وروعة البيان . تخرج في كلية غوردون وتأدب على يد الشاعر الكبير عبد الرؤوف سلام الذي لقنه أساليب الفصحى وزوده ب ذخائر الأدب العربي ، فلما بلغ أوج الشباب ونزل الى معترك الحياة كان صاحب أسلوب عصري مبين ، ومؤلفاً لدواوين شتى ولكتاب طلي مفيد هو كتاب العربية في السودان الذي سد به فراغاً كبيراً في المكتبة العربية والدراسات السودانية ومن أبرز السمات التي يمتاز بها الشاعر عبد الله عبد الرحمن أنه ممدوح يمتاز من ممدوحى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو لا يمدحه كما يمدح الشاعر الخليفة أو السلطان ليظفر بنوالة أو ينعم برفده إنما يمدحه بمدح العاشق الولهان الذي ذهب الهوى به كل مذهب وتركه هائماً في يداء الغرام .

ويبدأ عبد الرحمن معظم مدائمه بذكر الحمر والصهباء ولكنها ليست كذلك الحمر التي كان يتغنى بها الشاعر أبو نواس ومن لف لفه من شعراء الحمر في الأدب العربي ، إنما هي خمر أخرى لم تمنعها الأديان ولم تحرمها الكتب السماوية وإن فعلت في النفوس فعلها فأذهلت العقول وحيرت الابواب ألا وهي خمر ذكر رسول الله الذي تهتز له القلوب طرباً وتنشئ معه الصدور سحراً .

وفي هذا يقول عبد الله عبد الرحمن :

أدرها بعد نومات العشى	كيت اللون كالحند الوضى
مشعشة بماء المزن زفت	كما زفت خلألق أريحي
حواليها نواعم آنسات	نواعس ذات لحظ بابلى
وشد إليك أوتار المثانى	وروحنى بلعن الموصلى
فهذا اليوم ميدان التصابي	به تحلو القبابة للشجى

وجاء في مطلع قصيدة أخرى من قصائده في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

أدري على الكاس ياربة الشعر وجودي بمسول الرضابة في الثغر
لعل بهذا الكاس ياعز أنثى فأمسى بادراكى إلى العالم الشعري
هو الشعر فتان لدى عبقرية وما الشعر إلا من شعورك لو تدرى

وللشاعر عبد الله عبد الرحمن حاسة مرفهة نحو الطبيعة فهو يعشقها ويفتن بحماها ، ويؤخذ بسحرها ، ويهيم في مروجها وروابيها ، وينطلق في مراتبها ومغانها .. يترنم بأعذب الأشعار ، ويرسل أشجى الغناء . ومن يمن النظر في شعره يجد فيه صورة صادقة لجمال الطبيعة في السودان حيث المروج المعتدة والأشجار الملتفة والجداول الجارية والأطيوار الصادرة والأغصان المتأيلة والطبيعة الحاملة التي توحى بالفن وتبعث الشعر حيا :

كم للطبيعة في السودان من فتن وكم لأطيوارها من سحر ألحان
ما أكثر الملهمات الشعرية وما أبدها للاديب الهادم الباني
الرميل عند ضفاف النيل تحسبه لمس الشفاء جلاها بيض أسنان
وظلمة الليل في العتور ملهمة خوالد الشعر يرويها الجديدان
والسرح والسدر والجميز كارعة من صيب القطر أو من فيض غدران
كل تسيل على الآفاق عزته فتعلا النفس من حسن واحسان

وقد تمثلت ثقافة عبد الله عبد الرحمن العربية في الأبيات التالية لهذه الأبيات حيث استمد بعض معاني التنبؤ في قصيدته في شعب بوان وهو أحد متنزهات الدنيا بفارس ليضيفها على جمال الطبيعة في (أبا) وهي جزيرة في النيل الأبيض بها مزارع السيد عبد الرحمن المهدي وبها متعبده « أى غازه » فقال :

وفي أبا حيث تلقى الأرض كاسية والطير خاطبة من فوق أغصان
تهش للزائر بها كل آونة وتعلا القلب من روح وريحان
حيث البداوة في أجلى مظاهرها والإبل طالعة من بين كئبان

ما أجمل الريف مصطافاً ومرتبعا وغادة الريف في حسن كغزلان
الحد لم ترع الموسيقى جوانبه والجيد من حسنه عن زينة غان

وقد تجلت في هذه القصيدة نظرة عبدالله إلى الجمال فهو يعشق الجمال الفطرى
الذى لم تشوّهه المدنية بطلاتها ولم تعث به الحضارة بألوانها وتتجلى فيه النفس
العربية السودانية الصافية والحياة العربية السودانية الصريحة دون تزويق
أو تنميق ، ودون تكلف أو تصنع .

وامتاز شعر عبدالله عبد الرحمن كذلك بجنوحه إلى الحكمة وسرده للموعظة
الحسنة . والحكمة قطعة من الإحساس العميق بالحياة والفهم الصحيح للوجود ، ونتيجة
للتجارب العديدة في الحياة والنظرات السديدة إلى الكون والامتزاج القوى بالظروف
والأحداث ، حلوها ومرها ، والنوص في النفس الإنسانية والتغلغل إلى أعماقها .
وقد امتزجت الحكمة بشعر عبد الله عبد الرحمن في مختلف الأغراض
ولا سيما الرثاء ؛ فقال .

أيا نفس صبرا للقضاء وسلمى فما غلب الأيام غير المسلم
ولا تجزعى إن مسك الضر واعلى بأن صروف الدهر بالسوء ترمى
لعمري لنعم المرء غيبه الثرى ونعم الفتى باكيه غير مذم
غيور على الإسلام لم يثن همه مقالة سوء أو ملامة لوم
وقال كذلك في قصيدة أخرى :

الناس مرجع أمرهم لفناء والدهر بين شدائد ورخاء
ونضارة العيش الرخى يشوبها كدر ، وكل لذاعة لبلاء
دارت علينا يوم بينك أكوؤس بالحزن ملأى لا من الصباء
وإذا المنة سددت بسهامها لم تبق من سوق ولا أمراء

ورغم هذه النزعة الحكيمية التي كان يمتاز بها عبد الله عبد الرحمن فإنه
كان شاعراً مرهف الحس رقيق القلب يعشق الحب والمحبين ويقدر شهداء

الغرام ، فإذا كان العرب يتندرون بقصة قيس بن الملوح وليلى العامرية فإن
السودانيين يتندرون بقصة تاجوج وابن المخلق وإذا كان شوقي يسكب الدمع
على قبر العاشقين الخالدين فإن عبد الله عبد الرحمن لا يفوته ذلك ، فيقول :

ياقبر تاجوج حياك الحيا وحشا بصفحتيك شذى ورد وريحان
وابن المخلق لم تبرح حكايته فى الناس ، يسردها أشياخ حمران
إني أميل إلى الأشعار يبعثها حس قوى وأقلى الفاتر الوانى

ويعتبر عبد الله عبد الرحمن من حملة مشاعل العلم والثقافة الجديدة فى
السودان ومن الداعين إلى الأخذ بمحضارة الغرب والاستفادة من علومهم
وأبحاثهم على شريطة ألا يتعارض ذلك مع مقومات القومية السودانية أو يتنافى
مع مكونات الشخصية السودانية ، وفى يوم التعليم نهض عبد الله عبد الرحمن
وقال :

إن يوم التعليم ياقوم يوم عبقرى يناهض الأزمانا
إن يوم التعليم أقبل كالصب ح مينا ونبه السودانا
ولقد صادف الهوى من نفوس طامحات تأججت نيرانا
أخذت عدة إلى كل أمر وبنت من مجاله إمكانا
إن يوم التعليم ياقوم يوم إن تحيويه تخدموا الأوطانا

تلك هى خطرات عن الشاعر السودانى عبد الله عبد الرحمن وهى خطرات
موجزة نأمل أن توفى هذا الشاعر المجيد بعض حقه .



شاعر سودانی مُجدد زکریٰ ابی الطیب المتنبی

هو الشاعر محمد الأمين القرشي الحسيني وهو أحد أعلام الشعر العربي في السودان في العصر الحديث ولد عام ٨٩١ : ولما شب عوده وترعرع ألحقه والده الفقيه القرشي بأحد المكاتب حيث حفظ القرآن الكريم وطالع كتب السيرة ، وتبحر في علوم الدين ثم التحق بكلية غوردون عام ١٩٠٨ وظل بها حتى عام ١٩١٣ ثم عين عاملاً قضائياً في محاكم السودان الشرعية ثم رقي قاضياً في عدد من بلاد السودان . أما أبو الطيب المتنبي فأحد أعلام الشعر العربي في عصوره الذهبية الأولى ، ناصر سيف الدولة ودولة بني حمدان ثم قدم إلى مصر عام ٣٤٦ هـ ومدح « كافور الإخشيدي » فوعده بولاية مكث أربع سنوات في مصر طامعاً فيها ، غير أن كافوراً لم يف بوعده فعاد المتنبي مصر وهو يتميز من الغيظ ونزل بلاد فارس حتى عرض له فاتك الأسدي في حملة من أصحابه وكان المتنبي قد هجا أخته فتغلب فاتك وقُتِل أبو الطيب عام ٣٥٤ هـ ففقدت دولة الشعر ركنا ركينا من أركانها .

وقصيدة محمد الأمين القرشي يستهلها بقوله :

أبا الطيب اعذرني فانت كريم وإن فؤادي بالخطوب كليم
ولو صغت من زهر السماء قصيدة ودانت لقولي شهباً ونجوم
لما كنت إلا مهدياً مثل قطرة إلى البحر جاءت في الخضم تعوم

وهذه البداية التي استهلها محمد الأمين أشبه بتلك الديباجة التي كان يلجأ إليها شعراء العرب في مدح الملوك والخلفاء وذوي السلطان والصوُلجان فمدحهم لا يتعدى قطرة من بحر أو ما إلى ذلك بالقياس إلى الممدوح ولكن الممدوح عند محمد الأمين ليس ملكاً ولا سلطاناً يفرض سلطته وجبروته على الناس إنما هو زعيم من زعماء

الشعر وأمر من أمراء البيان وهو لا يقل بحال من الأحوال عن الخلفاء
الاقدمين وقد بين محمد الأمين منزلة المتنبي في الشعر العربي حين قال :

فتحت طريق الشعر سهلت طرقه وهذبت الصالحات تدوم
وكل بني الدنيا عيال عليكرو فانت أب لهم وانت زعيم
وامتازهم في مجلس أو بخلاوة تعلمهم ما أنتجته حلوم
وديونك للعمور بالشعر معهد به للرجال العارفين علوم
وروض نصير حافل بثاره يهب على الأجيال منه نسيم
يميل أولى الالباب حتى تخالهم نشاوى وما خمر هناك ذميم
ولكن خمرًا للقريض شرابه حلال وفي القرطاس منه نديم

و« محمد الأمين » في هذه الايات يشير إلى مكانة المتنبي الأدبية بين نقاده
ويقرر أحقيته في الفخر بشعره ويعتبره الرائد الأول للشعر موافقاً إياه على ما اعتقده
في نفسه من نباهة الذكر والانفراد بعلو الشأن وسمو النزلة حيث يقول :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغنى مغرداً
وقال كذلك :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر القوم جراها ويختصم

ولا يلبث محمد الأمين بعد ذلك أن يعيب على أهل السودان تجاهلهم لشعر أبي الطيب
ويدعوهم إلى مطالعته واسترواح عبيره والاستمتاع بنفائسه ثم يشير بعد ذلك إلى
خذلان كافور له وعدم منحه الولاية التي مناه بها وكان كافور الاخشيدى وعده
برلاية فلما رأى تعاليه بنفسه وشدة زهوه لم يوله عملاً وكان قد طلب منه ولاية

صيدا فلم يعطه إياها فعوتب في ذلك فقال يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد
صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة مع كافور ؟ ولكن « محمد الأمين »
لا يرتاح إلى حجة كافور وينطلق مدافعا عن الملتبي ساخطا على كافور ساخرامنه
هازئا بحكمه ، معزيا شهرته في التاريخ إلى أبي الطيب وإلى ما نظمه من شعر
سارت بذكره الركبان .

ألم تك أولى منه بالملك انه عليك اعتدى ان الزمان خصيم
أقبل عقل أن كافور حاكم عتل خصي جاهل وزنيم
يطاع له أمر بمصر ويزدهى على الخلق من كبر وأنت عديم
فلا بأس أن جردت جيشا عرمرما من الشعر تغزو ملكه وتروم
رفعت له ذكرا ولم يك نابها وخلد في التاريخ وهو غشوم

ويختتم محمد الأمين قصيدته بعد ذلك بأيات في الحكمة تذكرنا بما اشتهر به
الملتبي من حكمة بالغة وخبرة بأحوال الزمان ثم يطلب له الرحمة في مشواه الأخير :

فيا رحمة الله الجليل تنزلى على قبره إن الاله رحيم
وكوني كاشال القوافي طليقة فإن بها روحا هناك تديم



جيل جديد من الشعراء السودانيين

زعم بعض دعاة المدنية الحديثة أن زمن الشعر قد ولى وعهد الفن قد راح وأنت المدنية الحديثة بضجيجها وصخبها ولا محل فيها لبسات الخيال وشطحات الشعر وانطلاقات الفكر وقد رد الشاعر فيكتور هوجو على هؤلاء الدعاة منذ حوالي قرن من الزمان بأن الشعر لا يمكن أن يموت أو يندثر وأنه مادام بين الضلوع قلب يخفق وإحساس يضطرم ، ومادام بالسماء كواكب تتألق ونجوم تلمع وفي الرياض أطيّار تصدح وبلايل تغرد فلا بد أن يجد الشعر سبيله إلى الحياة وإلى الوجود .

ومن محاسن الصدق في الأدب السوداني المعاصر أن نشأ جيل جديد من الشعراء يتأثرون بالمذاهب الأدبية الحديثة رومانسية ورمزية وواقعية وغيرها . وحاول هذا الفريق أن يتخذ من قراءاته المتصلة في الجامعة أو غير الجامعة للآداب العالية نماذج للشعر الرفيع ، ونذكر من هؤلاء الشعراء محمد مفتاح الفيتوري وجبلي عبد الرحمن وتاج السر الحسين وطنبل وغيرهم .

فإن هؤلاء الشعراء حاولوا أن يتجردوا من التقاليد الكلاسيكية البالية في نظم القصيدة العربية وأضافوا إليها تجارب تقسية واضحة بعضها في الحب وبعضها في الألم والشكوى وبعضها في الثورة على الأوضاع الفاسدة في المجتمع أو ضد الظلم والطغيان فندا شعرهم مفعماً بشتى الشاعر زاخراً بمختلف الأحاسيس .

وها هو ذا الفيتوري ينفذ عن نفسه الأثقال ويحاول أن ينفذها عن كاهل كل وطني في الشرق :

يا أخى في الشرق في كل سكن يا أخى في الأرض في كل وطن
أنا أدعوك فهل تعرفنى يا أخاً أعرفه رغم الحزن
إننى مزقت أكفان الدجى إننى هدبت جدران الوهن

لم أعد مقبرة تحكي البلى لم أعد ساقية تبكي الهمس
لم أعد عبد جمود لم أعد عبد ماض هرم عبد وتن
أنا حي خالك رغم الردى أنا حر رغم قضبان الزمن

وها هو ذا الشاعر جيلى عبد الرحمن يردد بعض أشعاره الوطنية في ثورة-
تزعزع أركان النفوس وتهز عرش الجبابرة الطغاة .

لماذا - أبى - فى عروقي النشيد يمور دما عاصفا ساخنا
لماذا يورق تلك الليالى وكانت لظى راكداً آمننا
ويضرم قلبك مثل الالهيب وقد كان يا أبى آمننا
وأنت ركزت على الأمانى وأنت عقدت على النى
ولكنهم يا أبى قد أرادوا بأن استذل وأن أسجنا
ومن قبل قد كرموا شعبنا وبلوا المشانق من دمعنا
لينوا القصور وينوا الغنى وتذوى هنالك أشلاؤنا
وأقسم أنى لن أذعننا فما كنت يا أبى لنا
وما كنت يا أبى كافرا بشعبى بدعى بحقى أنا
وفى غدنا سوف يزهر الصباح رشيق الخطا مشرقا لنا

ولم تكن التجربة الوطنية هى التجربة الوحيدة لشعراء الجيل الجديد إنما كانت
لهم قلوب كما ثور وتصخب تسكن وتهدا وكما تكافح من أجل الحرية والاستقلال
تعشق الحسن وتتعلق بأهداب الجمال فقال طنبل يصف جبلا على شاطئ دققة
ويحكي ليلة عذبة من لياليه على الشاطئ الجميل .

جلسنا عشاء بقرب النهر وقد فضض الماء ضوء القمر
ونام على الرمل أطفالنا وغيرى انبرى لاهيا بالسحر
وما هم نفسى سوى منظر أثار بنفسى شقى الفكر
طلول شخصن بأعلى الربى وفى صمتهم دروس العبر
لقد أطرقت وبها مسحة حكمت سأم اليأس المتظر

وفي موضع آخر يقول الشاعر سعد الدين فوزي متغنياً بجمال الطبيعة متذكراً
وصال الحبيب :

كم سهرنا في ضياء القمر
وغفونا عن سهام القدر
وقطفنا من ربيع العمر
من لذات الشباب النضر
ثم لم نحفل بنقد أو جمود
هذه الأزهار تزهو حولنا
إن هذا الليل يخرى مثلنا
وصفاء الكون قد أضحى لنا
وكنار الحب يشدو معلنا
هاهو الصفوف هل من مستزيد

وهكذا استطاع الجيل الجديد من الشعراء أن يصور تجاربه النفسية في وضوح
وجلاء بأسلوب عذب جميل ليس فيه تعنت القدماء . وخلق بهذا الجيل الجديد
من الشعراء أن ينطلق في ميدان الشعر ما شاء له الانطلاق حتى ينتج الروائع من
الشعر والبدايع من الفن وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .



الرومانتيكية في شعر الشابي واليتجاني

الشاعر الأول هو أبو القاسم الشابي أحد شعراء المغرب المشهورين والشاعر الثاني هو التيجاني يوسف بشير أحد شعراء السودان الخالدين وقد جمعت الشعارين صفات متشابهة وملامح متقاربة دفعت أحد أدباء هذا العصر إلى أن يخرج كتاباً يضمه وجوه الشبه بين هذين الشعارين وهذا الأديب هو الأستاذ أبو القاسم محمد بدرى .

ووجوه الشبه بين هذين الشعارين لدى المؤلف تلخص فى أنهما عاشا فى قرن واحد وهو القرن العشرين وعاشا عمراً يكاد يكون واحداً فالشابي عاش من عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩٣٤ والتيجاني عاش من عام ١٩١٢ إلى عام ١٩٢٧ وقد نشأ كل منهما فى بيئة دينية محافظة من حيث التربية والتعليم وحاولا أن يطعما شعرهما بالثقافة الغربية ما استطاعا إلى ذلك سبيلا حتى أدركتهما علة واحدة وهى داء الصدر فماتا أنصر ما يكون الشباب وأجل ما يكون العمر وأوسع ما يكون الأمل .

وقد أشار الكاتب إلى نزعة تجمع بين هذين الشعارين وهى نزعة الحزن التى تكتنف أغلب شعرهما ولكن هذه الإشارة لم تكن إلا إشارة عابرة فى هذا البحث وعندى أن هذه السمة هى أبرز السمات التى تميز شعر هذين الشعارين وتلحقه بالأدب الرومانتيكى الممتاز ومعروف أن النزعة الرومانتيكية التى سيطرت على الأدب الأوروبى كان قواعدها نزعة الحزن أو نزعة اللانكوليا أو مرض القرن كما كان يطلق عليه الفرنسيون فقال الفردى فىنى «إنى أحب جلال الألم البشرى» وقال الفردى موسىه «المرء طفل معلمه الألم» وقال «لا شىء يسمو بنا إلى العظمة كما يسمو الألم» وكذلك كان الحال فى الأدب الإنجليزى فقد سيطرت روح الحزن والأسى على ملامح يرون وشلى ووردز ورث وغيرهم ووجدنا هؤلاء الشعراء الرومانتيكيين تسود أشعارهم نغمة من التشاؤم والشجن وقد

كتب كارليل في هذا المعنى يقول « سألت نفسي فيم ضجرك من هذا الوجود
وفيم هياجك وفيم حزنك وفيم تمزيقك لفؤادك منذ أن كنت صبياً أليس ذلك
لأنك غير سعيد . . ؟ ماذا يمنع أن يكون القدر قد كتب لك في السجل القديم
أنك ولدت لتشتي لا لتسعد ! وهل أنت إلا طير جارج يطير في أرجاء الكون
باحثاً عن طعام فتتفق في ألم لأنك لا تجد ما يشبع نهك . . ؟ اطو صحائف يرون
وافتح صحائف جوته » .

وهذه النعمة هي نفس النعمة التي نلناها في شعر الشابي أو التيجاني ولست
أعني بهذا أن الشابي والتيجاني سارا على نهج المدرسة الرومانتيكية وتعمقا في
دراسة الأدب الأوربي ولا سيما الشعر الرومانتيكي ، إنما أعني أن الشعر يتدفق
من معين واحد مهما اختلفت الديار وتناوت الأقطار ألا وهو معين الإنسانية
الصافي الذي لا ينضب وينبع النفس الحية الذي لا ينضب . . ولكن مع هذا
لا استبعد أن يكون الشابي والتيجاني قد اطلعا على تراجم قصائد ليرون أو شللي
أو لامارتين أو الفرد دي موسيه أو غيرهم ، فتأثرا بشعر هؤلاء الشعراء
الرومانتيكين ولا سيما إذا لاحظنا أن القرن العشرين شهد منذ أوائله نهضة كبيرة
في نقل الآثار الأدبية الغربية إلى لغة العرب وكانت الصحف العربية والمجلات
الأدبية بوجه عام تحرص كل الحرص على تزيين صفحاتها بروائع الأدب الغربي .
ونزعة الحزن هذه هي أبرز ما يميز شعر هذين الشاعرين . وهي من أهم
مميزات الأدب الرومانتيكي الخالص . وقد ألم الكاتب بهذه النزعة إلماها سريعا
ولكنه في عجلاته السريعة حاول أن يرمخ الفكرة في الأذهان فتشبه
يقول الشابي :

آه تواری فجری القدسی فی لیل الدهور
وفنی کما یفنی النشید الحلو فی صمت الأثر
وأری الأباطیل السکثرة والمآثم والشورور
وتصادم الأهواء بالأهواء فی کل الأمور

ومذلة الحق الضعيف وعزة الذل الحقير
وأرى ابن آدم سائراً في رحلة العمر القصير
ما بين أهوال الحياة وتحت أعباء الضمير
متسلقاً جبل الوجود الوعر كالشيخ الضرير
دامى الأكف ممزق الأقدام وغبر الشعور
مترنح الخطوات ما بين المزالق والصخور
ماذا جنيت من الحياة ومن تجارب الدهور
غير الندامة والأسى والبؤس والدمع الغزير

ولكن هذه القطعة لا تصور النزعة الحزينة في أعلى مراحلها ، إنما توجد
للشابي قطع أخرى تنضح بالألم وتنطق بالأسى وتطفح بالدموع كقوله :

لم أجد في الوجود إلا شقاء	سرددا ولذة مضحكة
ووروداً تموت في قبضة الأشواك	ك ما هذه الحياة المملة ؟ !
وأمانى يغرق الدمع أحلامها	وتفنى يد الزمان صداها
وأناشيد يأكل الالهب الدامي	مسراتها ويبقى أساهها
سأم هذه الحياة عداد	وصباح يكر في إثر ليل
ليتني لم أفد إلى هذه الدنيا	ولم تسبح الكواكب حولي
ليتني لم يعانق الفجر أحلامي	ولم يلثم الضياء جفوني
ليتني لم أزل كما كنت ضوءاً	شائعاً في الوجود غير سجين

وقال يصف شعره :

أنت يا شعر فلذة من فؤادي	تتغنى وقطعة من وجودي
فيك ما في جوانحي من حنين	أبدى إلى صميم الوجود
فيك ما في خواطري من بلاء	فيك ما في عواطفي من نشيد
فيك يبدو شقاء نفسي عبوساً	شاحب اللون عارى الأجساد
كلته الحياة بالحزن الدامي	وغشسته بالرياح السود . .

وقال كذلك يث صاحبه آلام نفسه وأشجان قلبه :

صاح هذى الحياة أنشودة الحزن فرتل على الحياة نحبي
إن كأس الحياة مترعة بالدمع فاسكب على الحياة صبيبي
إن وادى الظلام يطفح بالهول فما أبعد ابتسام القلوب
لا يغرنك ابتسام بنى الأرض تخلف الشعاع لنزع الالهيب
أنت تدري أن الحياة قطوب وخطوب فما حياة القطوب ؟

وتأمل أشعاره الحزينة التى تتدفق كقطرات من الدمع وكأناات القلب :

سئمت الحياة وما فى الحياة ولا تجاوزت فجر الشباب
سئمت الليالى وأوجاعها وما شعشت من رحيق وصاب
فخطمت كأسى وأقيمتها بوادى الأسى وجحيم العذاب

هذا عن نزع الشاى الحزينة ، أما نزع التيجانى فإنها لا تقل عنها لوعة
ولا حزنا فقد كان التيجانى رقيق المشاعر مرهف الحس وكانت تسيطر عليه
نزع حزينة فى بعض الأحيان ولعل ذلك يرجع الى أنه كان يحمل بين أطوائه
نفسا وثابة وروحا تواقا الى المجد والخلد فى وقت ساد فيه الجمود كما أن العلة
التي ألت بصدرة حدث من حريره وكبلت من انطلاقاته فرانت عليه كآبة موجعة
من الهم والقلق فلا غرو أن يقول :

هى نفسى من الندى قطرات لم تلتها يد الزمان بخلط
هى من صفحة الشباب قوى تزخر بالحب أو تموج بسخط
هى قسطى من السماء فما أضيق فى العالم الترابى قسطى

وقال كذلك فى رنة حزينة وتغم أسيف معبرا عن القدامة التى يجب أن
يكنها العالم تجاه الشاعر بعد موته وعن الأسى الذى يجب أن يستشعره بفقده :

وضع له الأصداف قبرا فما يستبطن الدرة غير الصدف
واسكب على قبر النبوغ الدما واثر على قبر الشباب الطرف

ولقد امتزجت نزعة الحزن عند الرومانتيكيين بحبهم للطبيعة وفنائهم فيها
وقد كان لكتابات روسو أثر بالغ في تكوين شعراء الطبيعة من أبناء المدرسة
الرومانتيكية في كل دول أوربا . ولم يكن الرجوع إلى الطبيعة الذي دعا روسو
إليه رجوعاً إلى الطبيعة في السلوك أو في الأخلاق أو في فهم الحياة فحسب إنما كان
أشبه شيء بدين جديد أو حركة صوفية اشترك فيها عامة رجال الفكر الأوربي
في عصر الثورة الفرنسية وكان كهنتها وردزورث في إنجلترا وجوته في ألمانيا
وقد تاه وردزورث بين بحيرات اسكتلنده وجبالها ليقراً معاني الألوهة في الزهرة
وفي الشجرة وفي مياه الغدير وقال للناس إن الطبيعة تشفى الإنسانية من آلامها
وتخفف من أوجاع القلوب وتاه يرون وشلى بين بحيرات إيطاليا حيث ترنما
بأعذب أشعارها وأجل انتاجهما الأدبي وقد ظهرت عند أبي القاسم الشابي
ظاهرة النزوع إلى الطبيعة واضحة جلية كما ظهرت كذلك عند التيجاني حيناً أصبعا
شاعرين رومانتيكيين دون أن يلتصبا السبيل إلى الرومانتيكية فهما يلجآن إلى
الذاتية ومعروف أن الرومانسية ذاتية وكلاسيكية موضوعية وهما ينزعان إلى
طابع الحزن والتشاؤم ويميلان إلى الحدة في الإحساس والعنف في التعبير عن
المشاعر وهذه السمات كلها من مظاهر الرومانتيكية ، قال الشابي في « مآثم
القلب » :

مآثم حبي

مآثم قلبي

فاذرفي يا مقلة الليل الدراري عبرات
فوق قلبي فهو قد ودع أوجاع الحياة
بعد أن ذاق الالهيب

واندييه

واغمسليه

بدموع الفجر من أكوأب زهر الزنبق
وإدقنيه بجلال فى ضفاف الشفق
ليرى روح الحبيب

وعندما يسفر الصبأح على الشابى يحاول أن ينسى أشجانة ويترك أترأحه
وينظر إلى الحياة نظرة جديدة مشرقة ولكن أنى له هذا ؟ . .

اسكنى يا جراح واسكنى يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطل الصبأح من وراء القرون
فى فؤادى الرأحب معبد للجمال
شيدته الحياة بالرؤى والأخبال
فتأوت الصلاة فى خشوع الظلال
وحرقت البخور وأضأت الشموع

أما التيجانى يوسف بشر فإنه يقدر الجمال ويهم فى حسن الطبيعة وفتنتها
فأقول :

إليه طير الشاب من صاغ هذا الـ حسن فى زهوه وفى استكباره
من أذاب الضياء فيه ومن تغـ م شجوا الهوى على أوتاره
من رمى ما أصاب من صور الفتنة من زرها على أزراره
والفتور الذى بعينيك من مو ه سحر الحياة فى أقطاره
نظرة كالصلاة زلنى إلى الله له وقربى لعزه واقتداره
كما يقول التيجانى كذلك :

كل ما فى الكون يمشى فى حناياه الإله
هذه النملة فى رفقا رجع صدها
هو يحيا فى حواشها وتحيا فى ثراه . .

وقال كذلك :

وحبوناك ما يزيد بالغز وضوحاً وأنت تفتا صعباً
وذهبنا بما يفسر معنك بعيداً وأنت أكثر قرباً
من ترى وزع المفاتن يا حسن من ذا أوحى لنا أن نجبا
من ترى علم القلوب هو الحسن وقال اعبدى من السعير رباً

هذه هي مظاهر من الألم عند الشابي والبيجاني وعندى أنها من أبرز الملامح
التي تميز هذين الشاعرين كما تصور المذهب الرومانتيكي أصدق تصوير وقد مر بها
المؤلف مرورا عابرا سريعا ولكنه مع هذا استطاع في هذا الكتاب أن يشير
كثيرا من الإعجاب وأن يتيح للنفوس ساعة أو بعض ساعة في قراءة
بحر طريف .



أثر الثورة المصرية في السودان

إنه لما يؤكد الروابط ويوطد الأواصر بين مصر وأهل الجنوب أن جميع الحركات الوطنية ودعوات الحرية التي يقوم بها أبناء مصر يكون لها في السودان أثر قوى وصدى عظيم فهب أبناء السودان عن بكرة أبيهم يجاهدون في سبيل الاستقلال والحرية وتحرير بلادهم من ربة الاستبداد والاستعباد . ففي عام ١٨٨١ قام أحمد عرابي بحركته الوطنية ضد تدخل الأجنبي وافتثاته على حرق البلاد ومن أجل تثبيت الحكم الدستوري في البلاد وضمان مبادئ الحرية والعدل والمساواة للجميع بعد ما كانت الامتيازات تعطى لطبقة خاصة وكانت الرتب العسكرية الكبرى في الجيش محفوظة دائماً للضباط الأتراك ولا يمنح الضباط المصريون إلا الرتب الصغرى التي لا تتجاوز القائم مقام . وكان يعاون « عرابي » في هذه الحركة من الضباط : على فهمى الديب قائد الحرس وعلى الروبى وعبد العزى حلمى أمير الآلاى السادس السودانى وغيرهم من طليعة الضباط . فكان لقيام الحركة في مصر وانتشار الآراء الثورية وإعلان العصيان ضد الخديوى ومعارضة الأجانب أثر لا بد أن يكون قد تسرب إلى السودان ومهد السبيل لحركة المهدي ضد الاحتلال الأجنبي ، حتى أنه لما تعددت انتصارات المهدي عولت الحكومة الإنجليزية على ألا ترسل من قبلها جنديا واحداً للدفاع عن السودان وأبلغت هذا القرار . معتمداً الجديد (ايفلن بارنج) ليشير على الحكومة المصرية بإخلاء السودان . غير أن الحكومة المصرية كانت ترى أن ضم السودان إلى مصر ضرورة تختمها الروابط الاقتصادية والطبيعية ووشائج الدم وصلات النسب . ولم يسع شريف باشا سوى الاستقالة احتجاجاً على تدخل إنجلترا . وتألقت عام ١٨٨٤ وزارة نوبار باشا وعليه تم تنفيذ سياسة إخلاء السودان .

وعندما قامت ثورة عام ١٩١٩ ضيقاً بالوظفين الإنجليز واطراد زيادة عندهم في مصالح الحكومة وانتشارهم في معظم الوظائف الكبرى .. ومن أجل الحرية

والاستقلال والتحرر من نير المحتلين . . وعلى أثر القبض على أربعة من كبار الزعماء في مصر وهم سعد زغلول وإسماعيل صدقي ومحمد محمود وحمد الباسل وتقيهم إلى جزيرة مالطة ، تفخ في الصور وهب الشعب من كل صوب هبة واحدة وتآلفت عناصر الأداة العربية المصرية من أقباط ومسلمين وبهود على بذل كل مرتخص وغال في سبيل الانقضاء على الإنجليز . وأخذت هذه الحركات تنسب إلى السودان شيئاً فشيئاً تثير نفوسهم الأبية وتحرك ضمائرهم النقية التي تأبى اللذل والضميم . وقام الشباب بحركته الوطنية ضد الاحتلال البريطاني وظلت النفوس تتعسس ما فيها من حنق وسخط على المحتلين حتى اشتعلت نار الثورة في السودان عام ١٩٢٤ ، وقامت جمعية اللواء الأبيض بمقاومة الاستعمار وأبلى أعضاؤها بلاء عظيماً في سبيل تحرير البلاد ، واتهم الضابط على عبد اللطيف بتهمة التحريض على الثورة والتآمر لقلب نظام الحكم ، وحكم عليه بالسجن والتعذيب . غير أن هذه الأساليب التعسفية الصارمة والطرائق الهمجية الجائرة لم تفت في عضد الشعب السوداني إنما ظل يكافح ويناضل بالدم وبالدموع في سبيل استرداد حريته المساوية ووحدة وادي النيل .

ولما قام الجيش الباسل قومته الوطنية المحيدة في وجه الفساد والطغيان وتم له بعون الله النصر المبين الحاسم في سرعة خاطفة ليس لها مثيل واتسمت الحركة بالوضحية وإنكار الذات والروح الوطنية العالية كان لكل ذلك في السودان أثر جسيم وصدى عظيم إذ رعبت به جميع الهيئات والأحزاب السودانية وانهاالت البرقيات وتالت الرسل بالتهنئة والتأييد .

وقد أزالته هذه الحركة المباركة من نفوس السودانيين كثيراً من المخاوف ومن الشكوك التي كانت : تتنازعهم لتدخل الملك في السياسة واضطراب نظام الحكم في مصر وفساد الإدارة في البلاد : وكتبت الجرائد السودانية تؤيد وثبة الجيش الفتي الناهضة .

هذا وقد سافر السيد الرئيس جمال عبد الناصر إلى السودان حيث قوبل

بحفاوة منقطعة النظير من الأهالى مما يثبت ما بين الشعبين الشقيقين من أواصر
المودة والتقدير .

وقد أعلن الرئيس عبود فى أكثر من مناسبة عن العلاقات الطيبة التى تربط
بين البلدين برباط قوى متين لا تبلى أواصره .

وعند ما تعرضت البلاد للعدوان الثلاثى العاشم على بورسعيد عام ١٩٥٦
استنكرت الصحافة السودانية أيما استنكار هذا العدوان السافر وخرجت الصحف
تكيل التهم إلى الدول المعتدية .

كما أعلنت أن إسرائيل جسر للاستعمار ولن يهدأ بال العالم العربى حتى يتخلص
من هذه الشوكة التى تقض مضاجعه .

وقد كان مؤتمر القمة الذى عقد فى مدينة أديس أبابا فى شهر مايو عام ١٩٦٣
مجالا لتبادل الرأى ووجهات النظر بين الأقطاب الإفريقيين ومنهم الرئيس
جمال عبد الناصر والرئيس إبراهيم عبود .

وقد اتفقت وجهات نظر الأقطاب فى شتى المسائل السياسية ومنها رفض
الاستعمار فى مختلف صوره وأشكاله ، والإيمان بإرادة الشعوب فى تحقيق كرامتها
وتوجيه ، صيرها .

ومن المنتظر أن تزداد الروابط بين الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية
السودانية على الأيام قوة وثباتا ، لإيمان الشعبين الشقيقين بأن القومية العربية
هى المرفأ الأمين الذى يقى العالم العربى من الاستعمار وأذئاب الاستعمار .



الغزل في الشعر السيواني

كان الشعراء الجاهليون يبدءون قصائدهم ومعلقاتهم بذكر الغزل والنسيب والتشبيب والوقوف على الأطلال والدمن وبكاء الأحبة وما إلى ذلك وقد شاعت هذه الطريقة في شعر الجاهليين كما شاعت في شعر الشعراء الإسلاميين حتى جاءت مدرسة أبي نواس الشعرية فأنكر على الشعراء القدماء بكاء الأطلال والدمن وبدء القصائد بالغزل والنسيب وطلب من الشعراء أن يستهلوا قصائدهم بذكر الحمر ومجالسها وأنسها ظاناً بذلك أنه يستطيع أن يبعث التجديد في الشعر العربي ولكن دعوة أبي نواس وأتباعه لم تلق الذبوع المنتظر فلم يلبث الشعراء أن عادوا إلى عادتهم القديمة وذكر الغزل والنسيب وبكاء الأطلال والدمن في مطالع قصائدهم والغريب أننا إذ نقلب النظر في ديوان شوقي أمير الشعراء أو حافظ إبراهيم شاعر النيل أو غيرها من شعراء العصر الحديث نجد هذه العادة لا تزال متبعة في أغلب القصائد ولسنا بصدد ذكر الأثر الجميل والوقع الطريف الذي يتركه الغزل في مطالع القصائد في النفوس إنما نحن بصدد تسجيل ظاهرة شاعت في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث .

ومن يتصفح دواوين الشعراء السودانيين في العصر الحديث يجد هذه الظاهرة واضحة جلية ولا غرو في هذا فالسودان يتطلع دائماً إلى مصر والشعراء السودانيون يحاولون دائماً أن يهجوا نهج الشعراء المصريين وأن ينسجوا على منوال الأدب المصري . قال الشيخ محمد عمر البنا في مطلع قصيدة يمدح بها الأمير الزاكي :

أبدأً يؤرقني عير شذاك	وزيدني قلقاً دوام جفائك
ويردني من حالة العقلا إلى	حال الحبال تذلي وإباك
وزيدني طرباً وحسن مسرة	برق تألق من ضياء سنالك
ياربة الحسن الذي فتن الوري	أكذا يكون جزاء من يهواك
عذبتني بالصد والهجران ما	ذنبى سوى أنى أروم لقاءك

وقال السيد محمد سعيد العباسي من قصيدة في الشكوى :

قفوا في ربي كانت تحل بها سلمى فإني أرى هجران تلك الربي ظمأ
أسائل رسم الدار أين ترحلوا وهل أفصحت يوماً لسائلها العجا
منازل كانت للبدور منازلاً فأُنحت بريم الوحش من بعدها تسمى

وهكذا نجد أغلب الشعراء السودانيين يستهلون قصائدهم بذكر الغزل والنسيب والوقوف على الأطلال كما كان يفعل الشعراء الجاهليون بل إن هناك ما هو أكثر من هذا وهو أن أكثر صورهم وتعايرهم وخيالاتهم مستمد من الأدب العربي القديم فالمرأة هي الظبية وهي الهامة وهي القمر ، والخمر كالخاتم والثغر كالدر والقوام كقضيب البان والعجز ككثيب الرمل وما إلى ذلك .

قال عبد الله محمد عمر البنا :

برزت وقد تبلت فؤادي زينب حسنا تصبي للجليم وتسلب
فالخمر واه متعب كمحبها والردف مثل الشوق موه متعب
هيفاء قد عقد الحياء لسانها وغدا الدلال لها رقيقاً يحجب
ترنو فترسل للعقول صوارما وتميس في ثوب الجمال وتسحب
واللفظ مثل السحر يستلب النهي كالخمر إلا أنه لا يشرب
والشعر مثل الليل إلا أنه لم يبد فيه لمن تأمل كوكب
والوجه مثل الشمس إلا أنه تلقاء ليل الشعر ما إن يغرب
هي كالحياة لمدنف أو كالحيا لمحل لكنها هي أعذب

فمن ينعم النظر في هذه الأبيات يجد الشاعر يعطينا حلقة متصلة من التشبيهات والاستعارات أكثرها مستمد من الخيال العربي القديم بل إن الشاعر يستهل قصيدته بذكر اسم محبوبته كما كان يفعل الشعراء الأقدمون في ذكر ليلي ولبنى وهند ودعد وزينب . كذلك فالنظرات سيوف صوارم واللفظ سحر كالخمر والشعر كالليل والوجه كالشمس وكل هذه معان طرقها الشعراء العرب قديماً حتى أصبحت

من المعاني المستهلكة وأصبحت أشبه شيء بالعملة القديمة غير المتداولة التي طال بها الزمن وانقضى عليها الأمد ولكننا مع هذا لا ينبغي أن ننكر أسلوب الشاعر الذي استطاع أن يصوغ من هذه المعاني المتداولة أبياتا رقيقة لا تخلو من جمال وروعة .

وأما الآن قصيدة أخرى للسيد أبي القاسم أحمد هاشم لا تخرج دعائها عن القصيدة السابقة ولكن الشاعر صاغها في أسلوب آخر طريف لا يقل روعة ولا فنة عن أسلوب البنا :

بسمت عن در ثغر مستبين منع البدر ضياه أن بين
وبدت للورد في خد نصير فراح الورد مصفر الجبين
خطرت في قدها فالبان في خجل يضحك منه الياسمين
ورمت باللخط منها فأصا بت به حبات قلوب العاشقين
فترام من جراحات اللوا حظ ما بين قتل وطعين
ولا أظن أن أحدا يخالفني في أن هذه المعاني التي تضمنتها هذه القصيدة ساذجة بسيطة مطروقة وإن كان هناك فضل للشاعر فيها فإنما الفضل يرجع إلى أنه استطاع أن يخلق منها أسلوبا رقيقا ووزنا رخيا . .

وقد استطاع الشاعر عثمان هاشم أن يستغل وصف الثغر بالكأس والريق بالريق فينظم أبياتا طريفة يقول فيها :

هذي الحسان وذى كئوس الراح فاشرب وغن اليوم لي يا صاح
واضرب على عود السرور مرددا صوت الغناء بريشة الأفراح
فالآن قد طاب الشراب وقد بدت بنت الكروم تدب في الأرواح
فدع المدير يكف عن ككاساته ويطوف لي بالريق لا بالراح

فالشاعر هنا يجمع بين أدب الحمريات وأدب الغزل إلا أنه لا يقصد سوى التمتع بقرب محبوبته فهي عنده كبنت الدنان تسلب عقله وتخلب فؤاده وتبعث في نفسه النشوة والسحر وفي هذا قال السيد محمد السيد أحمد :

نشوة الخمر فيك خمر المعاني لا عصير الكروم بين دنانه
تقطف العين من محياك زهرا زاهي اللون فهي قيد جناحه
رب خمر أضل منها وسمعي يتعاطى الكئوس من ألحانه
تدع النفس بالترنم مكري وحلال السلاف من أجفانه

وقد امتزج الغزل في الشعر السوداني عند كثير من الشعراء بمباهج الطبيعة
ومرايح الفتنة ومهود الجمال فقد أوحى الطبيعة الساحرة إلى الشعراء بالحُب ،
فأخذوا يلتمسون الروابي الخضراء . . والتمائل الملتفة . . والجداول المنسابة . .
والأزهار البانعة . . والورود المشرقة . . قال التيجاني يوسف بشير في قصيدته
الحالدة « في الموحى » :

ها هنا هيا الهوى لك ملكاً قمرياً على عروش الأزاهر
دولة من مواكب النور صفت عالماً من عرائس الشعر زاهر
دولة لا تزال من قضب الريح يحان تبني صوالجا ومنابر
يصنع القلب للهوى من معاني العطر فيه مالا تصوغ الأزاهر

وقد امتزج الشعر الشعبي في الغزل بكثير من مفاتيح الطبيعة كقصيدة الشاعر
السوداني سيد عبد العزيز « يا أنة المجروح » التي جاءت حافلة بوصف مظاهر
الطبيعة الجميلة وكذلك جاءت قصيدة « الحر والأحلام يا جميل » للشاعر القومي
مصطفى بطران .

وقد حاول بعض الشعراء السودانيين أن ينظموا القصائد الغزلية في وزن
جديد يخالف الأوزان المعروفة لقصائد الشعر العربي فنظموا في أوزان الموشحات
التي عرف بها الشعر الأندلسي ، ومعروف أن هذه الأوزان الجديدة قد خلقتها
الحياة الاجتماعية الجديدة في الأندلس ومظاهر الترف والمدح واحتياج الناس إلى
التغنى بالأشعار الرقيقة والأوزان القصيرة والقوافي المختلفة حتى يكون ذلك أوقع

في النفس وألذ للسمع وأدعى إلى التطرف ، فابتدعوا من أوزان الشعر وقوافيه
مالم يكن عند أهل المشرق وخرجوا عن الأوزان المعروفة والقوافي المألوفة ولم
يلتزموا في أشعارهم قافية واحدة ولا وزناً واحداً وقد برز في هذا الميدان في
الأندلس ابن سهل الإشبيلي ولسان الدين بن الخطيب والأعمى الطليطلي وأول
من اخترع اسم الموشحات مقدم بن معافر العزري وأخذ عنه أحمد بن عبد ربه
صاحب العقد الفريد . وهذه الأوزان الجديدة — أوزان الموشحات — شاعت
بين كثير من الشعراء السودانيين ولا سيما في شعر الغزل ، كالتيجاني يوسف بشير
والسيد صالح عبد القادر الذي يقول :

لا تقل صدا فما لي جلد ودع اللوم قفاي لا يعي
وحبيب مربي ما أكثرنا .. خيب الظن وعهدى نكثنا .. وبقلبي في الهوى قد عبثنا
فبكي لي الناس مما أجد
وبكت أهل السموات معي
أزهد الصبر وقد أهوى القوي .. وبنار الوجد أحشائي كوي .. بعد أن كان يساقيني الهوى
بات عني معرضاً يتعبد
وأنا بت شديد الولع
أولع القلب وها أورثنا .. فبكي اللأم واللاحى رثى .. حدث الناس وماذا حدثنا
قال لا وصلا لدينا يجحد
فاجزعي يا نفس أولا تجزعي

وقد امتزج الغزل في الشعر السوداني عند بعض الشعراء بنفحات صوفية
وخطرات ربانية ووجدوا في صور الجمال ومواضع الفتنة تقديساً لقدرة الخلاق
العظيم وآية على حسن خلقه وإبداعه فما جمال الوجوه وما مسعر العيون وما تناسب

الأعضاء وتناسق الأجسام إلا آية من الآيات الربانية ونعمة من النعمات الإلهية . .
وفي ذلك يقول التيجاني :

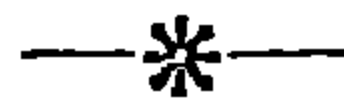
حسرت ما الحب ما الهوى ما النعا

بسير اللواتى يبين عن أسرار

نظرة كالمصلاة زلنى إلى الله

له وقربى لعزوه واقتداره

هذه خطرات حول الغزل فى الشعر السودانى وإنها لخطرات سريعة أرجو
أن تكون مؤدية للقصد .



بين الأمثال المصرية والسودانية

لكل أمة من الأمم تراث عظيم من الأدب الشعبي تعز به وتحافظ عليه وتمسك به على مر الأيام ومن هذا التراث كثرة الأمثال الدارجة والفصيحة التي انتقلت من فم إلى فم ، من الشيوخ إلى الشباب ومن الماضي إلى الحاضر حتى أصبحت تجري على كل لسان ويتغنى بها الصغير والكبير .

والأمثال جمل رصينة جمعت بين الإيجاز والبلاغة وإصابة المعنى وحسن التشبيه وقد أطلقت على حادثة معينة أو قصة معروفة ثم وجدت في حوادث الأيام ما يشابهها ومن خطوب الدهر ما يماثلها فانطلقت ألسنة الناس تحكيها . وقد جمعت الأمثال العربية في كتب شتى مثل كتاب الأمثال للميداني غير أن هذا الكتاب ضم أمثال العرب جميعاً على اختلاف قبائلهم وتنوع بطونهم بدون نظر إلى العصور التاريخية ومن ثم كان يضم أمثال العصر الجاهلي مع أمثال العصر الإسلامي من غير تبويب ودون ترتيب .

وقد قام الأستاذ عبد الغني حسن بدور كبير في تبويب الأمثال العربية وترتيبها مع أحد زملائه في كتاب أطلق عليه أمثال العرب ويضم نخبة من الأمثال العربية تزيد على مائتين وخمسين مرتبة ترتيباً هجائياً . وبعد إيراد النص يشرح المؤلفان المثل بعبارة صحيحة واضحة ويوردان مصادره ومضاربه التي رتبت ترتيباً هجائياً لتيسر للقارئ أن يقع على المثل وموضوعه .

ومن الأمثال العربية المشهورة قولهم : الصيف ضيعت اللبن ، القافلة تسير والكلاب تعوى ، كل فتاة بأبيها معجبة ، كل الصيد في جوف الفرا ، عند جهينة الخبر اليقين ، بلغ السيل الزبي ، أول الشجرة النواة ، إن غدا لناظره قريب ، تجوع الحرة ولا تأكل بثديها . . وما إلى ذلك .

وليست الأمثال كلها موضوعة باللغة العربية الفصيحة ، إنما هناك أمثال

موسوعة باللغة العامية في مصر والسودان تعتبر تراثاً نفيساً من الأدب الشعبي الرفيع وفي مصر يقولون : « امشى سنة ولا تخطى قنا » « وايد على ايد تكبر » « وجاور السعيد تسعد » « والرغيف اللى يلمع للصاحب اللى ينفع » « والحيطان لما ودان » « وباب النجار مخلع » « والبطران مكته قطران » « واللى يعيش ياما يشرف » .

وكل هذه الأمثلة لها دلالات نفسية عظيمة وتكمن فيها الموعظة الحسنة ويتراءى فيها الإرشاد القويم وتعبّر عما يجيش في النفس الإنسانية من خواطر صادقة ليس فيها كذب ولا رياء وليس فيها تزويق ولا تنميق .

ويتملىء السودان الحبيب بكثير من الأمثال السودانية باللغة الدارجة التي تحمل الحكمة البالغة والغاية الرفيعة ومثال ذلك قولهم : « الإبرة ماتشيل خيطين والقلب ما يسع اثنين » « وإبليس ما غاب عن أحد » « وتربى كلبك يعضك » « والبصل كل ريحته واحدة » « وحضرت الأكل وغابت العقول » « وايد الحر ميزان » « ونصيك يهيك » « والرضاعة هينة والفظامة قاسية » « والضيف يجى برزقه » .

وهذه الأمثال السودانية تنتشر في السودان وفي صعيد مصر بشكل ملحوظ وقد تكون ذات أسس سودانية محتمة كما قد تكون ذات أسس مصرية ، غير أنها انتقلت بين القطرين مع القوافل والمسافرين أو مع التجار أو نحو ذلك .

إن السودان أرض خصبة تحتاج إلى كثير من الرعاية والعناية حتى تنتج أطيب الثمرات والخيرات كما أن السودان حافل بتراث أدبي رفيع يحتاج إلى شيء من الدراسة والبحث والاستقصاء . وإن قليلاً من الجهد في هذا الميدان كفيل بأن يضع الأمور في نصابها ويحرك النهضة الثقافية في البلاد ويخرج لنا تراثاً قيمياً نفيساً في الأدب العربي الفصيح والأدب الشعبي الرفيع والأمثال السودانية العذبة التي تجمع بين السهولة والإيجاز مع حلاوة المعنى والإعجاز .

وقد أخرج الأستاذ نعوم شقير منذ سنوات بعيدة كتابا جمع فيه طائفة كبيرة من الأمثال الشعبية في مصر والسودان والشام . وهو في هذه الناحية أخص من كتاب الأستاذ عبد الغنى حسن ، وقد خصص لكل قطر من هذه الأقطار قسما خاصا غير أن الكتاب لا يضم من الأمثال في السودان سوى القليل الذي أتى للمؤلف أن يجمعه . ونحن نأمل أن يقوم أحد الباحثين السودانيين بهذا العمل العلمي الجليل مع دراسة لهذه الأمثال ومحاولة للوصول إلى مصادرها الأولى حتى لا يجد فيها دارسها أو قارئها شيئا من الصعوبة أو العسر وإنا لذلك لمنتظرون .



رحلة إلى السودان

من الكتب الطريفة التي ضمت إلى المكتبة العربية حديثاً وتستحق التنويه والتسجيل وتتصل بالدراسات السودانية اتصالاً وثيقاً ذلك الكتاب الذي أخرجه عجلة الطباعة منذ أمد غير بعيد وهو كتاب « رحلة إلى السودان » الذي كتبه الأستاذ محمد شاهين حمزة . وكتب الرحلات تراث أدبي معروف في الآداب العالمية جميعاً فالكاتب أو الشاعر قد تتاح له الفرصة أن يرحل إلى بعض الأقطار والأمصار ثم يحدث أن يسجل مشاهداته في هذه الرحلة أو نتائج هذا السفر في كتاب خاص ينشره بين الناس مثل كبلنج الانجليزى الذى زار الشرق واعتقد أن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ، ومثل لامارتين الفرنسى الذى سحرته الطبيعة في الشرق وبهره الجمال في الشرق فأخرج ديوانه (الشرقيات) ، ومثل جوته الألمانى الذى جاس بين ربوع الشرق ثم طلع على الملأ بالديوان الشرقى للمؤلف العربى ومثل رفاعه رافع الطهطاوى الذى رحل إلى باريس وشاهد مدينة النور فأخرج تحفته الطريفة (تلخيص الإبريز في تلخيص باريز ..)

ومن كتب الرحلات ما يكون أقرب إلى التسلية والتلهية منه إلى أى شئ آخر فإذا به يشير اللذة والمتعة ويبحث على البهجة والانشراح ولا يرجو سوى ذلك شيئاً ، أما كتاب الأستاذ حمزة فليس من هذا النوع . وليس معنى هذا أن كتابه لا يبحث بهجة أو انشراحاً ، فهو يسعى إلى ذلك جميعاً ولكنه يضم قبل ذلك كله وبعد ذلك كله لفتات اقتصادية حيناً ولفئات اجتماعية حيناً ولفئات سياسية حيناً ، ويشيع فيه الإخلاص للسودان والحرص على مصلحته من أوله إلى آخره وفى كل فصل من فصوله .

وقد أتيت هذه الرحلة للأستاذ محمد شاهين حمزة وتمت في ظل الحركة المباركة والثورة الكبرى ويذكر المؤلف أنه قام بجولة قصيرة إلى السودان

عام ١٩٤٠ ولكن هذه الرحلة لم تشف غليله ولم تبل صداه فآثر أن يكرر الزيارة وأن يشاهد السودان في ظل العهد الجديد .

ولشد ما كان يحرص المؤلف على زيارة السودان ولشد ما كان يدعو أقرانه في مصر إلى زيارة السودان ويعتقد أن الحديث عن السودان دون زيارته عبث لا طائل تحته .

وقد ذكر المؤلف المعادن التي يشتهر بها السودان وقال : الذهب كثير في السودان . إنه في شنقول جنوبي سنار ويعرف بالذهب السنارى وهو موجود كذلك في جبال النوبة بكردفان وفي غيرها من المناطق . ويوجد في السودان الحديد والنحاس والرصاص والزمرد وهذه المعادن هي الأساس في وجود صناعات عدة ينبغي أن تزدهر في ربوع السودان وتعمل على الانتعاش الاقتصادى في أرجاء الوادى .

ويضيف المؤلف إلى ذلك قوله : إن السودان غنى بالصمغ وبالنوع الممتاز منه ومنه صمغ الهشاب الذي يشتهر بلونه الشفاف المائل إلى الصفرة ومنه النوع الذي أثر فيه المطر قليلاً فأصبح لامعاً كالزجاج وإن كان هشاً قابلاً للكسر ، هذا الصمغ تنتج منه السودان ٨٠٪ و ٨٥٪ من محصول العالم ومن الواجب أن يستثمر استثماراً طيباً يعود على البلاد بأطيب الخيرات .

والسودان غنى بالحيوانات الزراعية التي يمكن أن تقوم عليها صناعات عدة مزدهرة وفي السودان نبات البردى وهو الذي صنع المصريون القدماء من رءوس سيقانه باقات الزينة والحصر والجبال والصناديق وصنعوا من لب سيقانه طعاماً ودواء .

وإلى جانب هذه اللغات الاقتصادية العظيمة التي زخر بها كتاب (رحلة إلى السودان) وجدنا لغات أخرى لا تقل عنها خطراً ولا أهمية لأنها تتصل بنواحي الحياة العامة وأعنى بها اللغات الاجتماعية .

فهو يتحدث عن التعليم في السودان ويرجوه الانتشار على أوسع نطاق

وأكبر صورة . وهو ينادى بضرورة إنشاء دار كبيرة للكتب في السودان تكفي حاجة المطالعين وتكون في مكان بارز وبقعة هامة حتى يسعى إليها السودانيون من كل صوب . ويرى أن فرع دار الكتب المصرية في مبنى الخير الاقتصادي بالخرطوم لا يفي بالغرض المنشود في الترغيب في القراءة والحث على الاطلاع . وتحدث عن الأغاني السودانية وطالب المثقفين السودانيين بضرورة المحافظة على الطابع السوداني في أغانيهم لكيلا ينزلقوا عن سودانيتهم ويضيعوا بين المصرية والسودانية وأحياناً بين الشرقية والغربية . وطالب بإنشاء معهد للموسيقى السودانية في الخرطوم بمعاونة الحكومة لاعتقاده أن في السودان تربة صالحة للموسيقى السامية وغناء يأخذ بالأباب . كما نادى بوجوب الاهتمام بالمرح وبأن يبقى السودانيون في السودان لإيجاد مسرح يبرزون فيه ويصبحون فوقه نجومًا وأبطالاً فذلك خير من أن يهاجروا في أرض الله الواسعة .

ومن الملاحظات الاجتماعية التي استرعت انتباه المؤلف الرحلة حرص المرأة السودانية على التمسك بتقاليدها الموروثة وهي الوشم والتشليخ وتصفير الشعر وإرساله صنفًا طويلة . ورأى في السوق امرأة في جيدها عقد أخضر جميل له صفوف ثلاثة متوازية ولم يكن هذا عقداً بل كان وشمًا جميلاً ولم يجد المؤلف غضاظة في استخدام المرأة السودانية للوشم محافظة على تقاليدها وعاداتها وأضاف إلى ذلك قوله : صحيح أن في السودان نهضة نسائية ولكنها لا تزال في المهد فإقبال الفتاة على التعليم مشوب بالخوف والحذر ويرى أكثر الآباء أن التعليم لا بد أن ينتهي بالبنت إلى أن تكون زوجة صالحة وأما ملة بأصول التربية الحديثة لصغارها .

ولا يغفل الكتاب عن إشارات وطنية فهو يعجب أن أكثر أسماء شوارع الخرطوم انجليزية مثل غوردون وكتشنر وستيوارث وستاك وفكتوريا وغيرها وخلق بها أن تكون سودانية أو مصرية كما لاحظ أن رجال البوليس السوداني يضعون قوق رءوسهم القبعات وطالهم بارتداء عمامتهم السودانية المشهورة . .

والكتاب مكتوب في أسلوب يتدفق رقة وعذوبة وسلامة وسهولة وتظهر
ميل المؤلف الأدبية في أغلب مواضع الكتاب فهو عندما يعرج على النيل الأزرق
الذى يجرى هادئاً رخياً يناديه بقوله :

كأنها الفضة البيضاء مائلة من السبائك تجرى في مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها
وهو يستعين في مواطن شتى من الكتاب بذكرياته الأدبية ويستخدم ثقافته
في هذا الميدان فإذا اشتد عليه الحر استغاث كما استغاث حافظ إبراهيم بالأستاذ
الإمام أن يردّه إلى مصر متغنياً بقول حافظ :

أثرت بنا من الشوق القديم وذكرى ذلك العيش الرخيم
وأيام كسوناها جمالا وأرقصنا لها فلك النعيم

ولم تكن رحلة المؤلف إلى السودان تخلو من غرض سياسى وهدف دبلوماسى
إذ شاء أن يتبين وجهات النظر المختلفة في السودان فأخذ يتحدث إلى الشعب
السودانى ويسأل الرجل في الطريق فيجيبه مصر ويسأله الشيخ الكبير : من أين
أنت آت فيقول من مصر فيجيب الشيخ الكبير : إني مع مصر لأنى أحبها فإنها
قدوة . . . وقدوة صالحة للسودان بالذات في نهضتها المتعددة النواحي .

وعندما زار المؤلف البرلمان السودانى تمنى أن تتحقق الوحدة ويرى في
المجلس النيابى المصرى نواباً سودانيين ويرى في المجلس النيابى السودانى نواباً
مصريين ولو قدراً معيناً من هؤلاء وأولئك هنا وهناك ، فكم من مصريين
ماتوا من أجل السودان وكم من سودانيين ماتوا في سبيل مصر ، وفي مصر
رفات سودانيين شهداء وفي السودان رفات مصريين شهداء ولن تضع هدراً
دماء أولئك وهؤلاء . . . بل لابد أن تتحقق الوحدة ويفرح المؤمنون
بنصر الله . . .

وأخيراً يتغنى بقول الشاعر :

منىَّ إن تكن حقاً تكن أحسن للى

وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

هذا هو طرف من الحديث الشيق الذى تغنى به الأستاذ محمد شاهين حمزة
فى كتاب (رحلة إلى السودان) وإنه لكتاب طيب وإنها لرحلة موفقة بمشيئة
الله تعالى . . .



محبوبِ ثايت ... ورُحلته الى السودان

كان محجوب ثابت من أشهر الأطباء في مصر في النصف الأول من هذا القرن وكان لا يرضى بمجهود على المرضى فيعودهم آناء الليل وأطراف النهار ولا ينتظر وراء ذلك جزاء ولا شكوراً بل إنه كان يخف لمعالجة الفقراء قبل الأغنياء ولا يتعرج من أكوأخهم ومساكنهم بين الأزقة والمنعطفات .

وكان يمتاز بروح مرحة ودعابة حلوة لا تفارق شفتيه بل تلازمه في أشد المواقف حرجاً وأعظم الأزمات ضيقاً فإذا به يرسل الملمحة الطريفة أو النادرة الخفيفة فتنتشع الكربة وتزول الغمة وترسم الابتسامات على الثغور وكان محجوب ثابت إلى جانب دراسته الطبية وثقافته العلمية أديباً مرهف الحس متدفق الشعور يحب الأدب ويطرب له ويهوى الشعر ويهتز له وكان كثير المحفوظ من الشعر القديم عظيم الاطلاع على التراث العربي الدفين دائماً الاستشهاد بالطريف من المثل والجميل من القريض وفي هذا المعنى يقول الأديب الساخر عبد العزيز البشري « وفيه ذكاء حاد ، يديم القراءة والنظر في الكتب ، وكأنه يحفظ بظهر الغيب كل ما يقرأ ، تعرف هذا من علمه الواسع الذي يكاد يستغرق كل ما في الدنيا وكل أسبابها إلا أن علمه مع الأسف يختلط بعضه ببعض ولو قد ملكت أمره وكانت لي بسطة في المال والسلطان لدعوت بمستشرق ألماني فني لينظم هذه المكتبة العظيمة فيضم كل شكل إلى شكله ويجمع كل جنس إلى جنسه ويرد كل معنى إلى بابه ويصف كل فن في دولابه » .

وقد كان محجوب ثابت يحب السودان حبا جما حتى أنه كتب بعض مقالاته تحت عنوان « حبيبي السودان » لما يكنه له من حب عظيم ومودة موصولة ولما يربطه بأبناء السودان من صداقات وطيدة وعلاقات أخوية متينة .

وقد أتيح له أن يسافر إلى السودان فتركت هذه الرحلة في نفسه أثراً عظيماً لا تبلى طرافته أو جدته .

ومثل محبوب ثابت ذات يوم : ما الشيء الذى مس شغاف قلبك فى السودان؟
فاجاب بما اجاب به شاعر قديم « تدرى وتسألنى .. تجاهل عارف ».

ليس هناك شيء واحد مس شغاف القلب وحرك نياطه وهز أعصابه بل هى
أشياء كثيرة ، فمن جمال الوادى وادى نيلنا الحبيب ، وادى أينا النيل مصريين
وسودانيين . . عربا كراما أو سودانيين أشاوس سودا أو مولدنا غرا ميامينا .

فالنيل معبودنا القديم بل والحديث إذا تكلمنا عنه اقتصاديا فماؤه عذب
وذراته تبر ذهب ومضى الدكتور محبوب ثابت يقول : إن الشعور بالفرح والابتهاج
برؤية النيل كان يخالجه ويم حواسه كما حل على شاطئه ، ولا ينسى تغات النسيم
التي كانت تنعش روحه وهو فى طريقه إلى « منجا » فلما مر به السائق قريباً من
شاطئه تعرف ذلك قبل رؤية مائه الحبيب السلسال الزلال العذب الجميل
بنغمت نسيم عليل يخترق غابات أشجار الطلح والهشاب الجميلة والسنت القوى
الذى يشبه سنط الصعديين « أبى تيج » « وأميوط » وذكره المارة ذوو العائم الذين
يحملون بدل العصى رماحا وهم فى القامة كاعتدال تلك الرماح قواما بنضرة الجمال
العربي عيونا وقدودا ومظاهر شجاعة وبسالة .

وكان محبوب ثابت يترنم فى رحلته باندلسية شوق المشهورة بين « كسلا »
والقصارف حتى وصل « سنار » وهو بالقطار :

يا نأح الطلح أشباه عوداينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا قصت جناحك جالت فى حواشينا
فان يك الجنس يابن الطلح فرقنا إن المصائب يجمعن المصايينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا سهماً وسل عليك البين مكيناً

وقد قضى محبوب ثابت فترة سعيدة من حياته فى وادى مدنى وناديه الجميل
كما طرب من الشاعر السودانى مدثر البوشى الذى يعتبر من أبرع الشعراء
السودانيين فى العصر الحديث واجتمع بكرام الجعليين والمحسيين الذين يمتون إلى
الخزرج أصلا وأرحاما كما يمت الجعليون إلى العباسيين ولقد ناوأ هؤلاء بل

وحاربت قبيلتهم (الربا كاب) ملوك الفونج بسنار وهم يتمون إلى الأمويين وقد مكث محبوب ثابت بين أهل السودان مغموراً بلطف حديثهم ثملاً بكل ما رأى .
هذا وقد زار محبوب ثابت في رحلته الزعيمين الكبيرين السيد عبد الرحمن المهدي والسيد علي الميرغني كما زار آل البدير وآل هاشم وآل عبد النعم وغيرهم من عليّة القوم

وقد كان يردد أثناء رحلته دائماً قول شوقي في أندلسيته التي لو كان رأى أودية الطلح بالسودان وغاباته بظاهر تلك الدائن كما رآه بظاهر إشبيلية لكان أطلق عليها السودانية بل لقد أطلق عليها محبوب ثابت الاندلسية السودانية من أجل هذا كله كان محبوب ثابت من أحب الشخصيات إلى السودانيين والمصريين على السواء بل لقد وصفه بعض الكتاب بأنه أمة بما اجتمع له من الصفات وما احتشد لديه من فنون المعلومات وما تكس عليه من ألوان التبعات ، وهو إذا اعتبر لنفسه حق التحدث في كل شيء والدخول في كل دقيق وجليل فقد وصف بإزاء هذا بأنه لكل واحد فيه نصيب ، واقترح بعضهم مداعبا أن تصدر الحكومة قراراً بنزع ملكيته وإضافته إلى المنافع العامة ولعها تجعله من نصيب دار الآثار حتى يظل رمزاً لتلك العبقريّة الفريدة على مر العصور .



شاعراً الأقطار العربية في السودان

(٧ - دراسات في الأدب السوداني)

أما شاعر الأقطار العربية فهو الشاعر خليل مطران الذي احتفل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بذكره وقد أتيح له أن يسافر إلى السودان ليقضى فيه فترة من فترات حياته كانت من أنضر الفترات وأعذبها .

وقد صرح هناك ببعض الآراء والأفكار التي تفصح عن شخصيته وتدل على مزاجه الفني واتجاهه في نظم الشعر .

وقد بدأ الشاعر رحلته إلى السودان في شتاء عام ١٩٤٤ مع صديقه الاقتصادي الكبير الدكتور يوسف نحاس ، فلقيا من صفات كرام السودانيين وتحية أدبائهم ما يعجز عنه الشكر ولما عادا من تلك الرحلة وعوفي الشاعر من المرض الذي ألم به نظم قصيدة عصماء أهداها إلى أولئك الإخوان الأعزاء وجاء فيها :

سألت نجيتي شيئا يقال فلم تأبه ولم يجب السؤال
مخدرة أبت لا عن دلال ولو فعلت لحق لها الدلال
ولكن مسها ضر عراني ففيها من تباريحي كلال
إذا ما الداء أقمد جسم حي أنشط روحه وبها كلال
على لصفوة نجب حقوق أنوء بها وأعباء ثقال
لقوني زائرا ولقوا صديقي بأنس فاق ما كنا نخال
وأولونا القلائد في حلاها تنافس الارتجال والاحتفال
فما أنا في الوفاء وما رفيقي إذا ما أعجز الشكر النوال

وانتقل الخليل بعد ذلك إلى وصف مرابع السودان التي بهرت عينيه وأثارت في نفسه ضروبا شتى من الشاعر وصنوبا عدة من الخواطر ، فالسحر الحلال يكسوها والجمال يسودها والخيال ينطلق من جمالها والنيل يتهادى بين

ربوع السودان جميلا جليلا في روعة وفتون ، والصعراء تمتد في فتنة وجلال
وتحيطها الجبال في جلال ووقار ، بينما لا تغرد اطياف في جنباتها وبين أيكها
وتترق هنا وهناك الجداول وتتألق الغدران .

بلاد تستبي الأحلام فيها حقيقتها ويسبها الخيال
لمجرى نيلها ولضفتيه جمال لا يباهيه جمال
وليد السحيفة والسرواسي جلال لا يضاهيه جلال
وليس كأيكها أيك يغسني ولا كدحها زارت دحال^(١)

ولم يشأ خليل مطران أن تطأ أقدامه أرض السودان دون أن يبارك كفاح
السودانيين في سبيل الحرية ويبين جلادهم في سبيل الوصول إلى أهدافهم القومية
وأغراضهم الوطنية منذ قديم الزمن فقال :

بنى السودان حيا الله قوما بهم هذى الفضائل والخصال
لقد عبرت بكم محن كبار بها أبطالكم جالوا وصالوا
وأعقبها تراك^(٢) لم تذلوا لحكم الدهر فيه ولم تزالوا
فأما في العداة وقد نهضتم فما من عثرة إلا تقال

وهكذا كان خليل مطران يدعو إلى الأخذ بناصر السودان حتى يقال من
عثرته وحتى يأخذ مكانه بين الأمم الكريمة والشعوب الحرة ولا غرو في ذلك
فالسودان يضم كثيرا من الكفاءات الممتازة والشخصيات البارزة والرجالات
الأفاضل والعلماء الأمثال الذين يمكن أن تتحقق مصلحة السودان على أيديهم
وهم بين شيوخ محنكين ينطقون بالحكمة ولا يصدرون عن الهوى وشبان مجاهدين
وطنيين يتدفقون إحساسا وحماسا .

شباب أذكاء تلوح فيهم لكل عظمة ترجى خلال
وأشياخ ميامين حصاف تزكي ما يقولون الفعال

(١) الدحال : مجامع الماء .

(٢) تراك : ترك وانصراف .

فهيـا في نواحي المجد هيا ولا يعدم سوابقكم مجال
أعدوا للحمى الغالى حماة إذا قل الحمى أين الرجال

وتمضى القصيدة كلها على هذا المنوال تنبض بحب السودان وتدعو إلى رفعته
ومجده وإعلاء شأن أبنائه والإشارة إلى العلاقات الوثيقة والوشائج المتينة
التي تربط مصر بالسودان منذ قديم الأزمان وغابر الأيام ، ولم يصرح خليل
مطران بذلك في شعره فحسب إنما صرح بذلك أيضا فيما ذكره من أقوال للصحف
والمجلات السودانية التي رحبت بمقدمه أيما ترحيب .

ونشرت مجلة السودان الجديد فصلا عن شاعر القطرين خليل مطران في
دعدها الصادر في ٢٦ من يناير عام ١٩٤٥ جاء فيه «والخليل ليس بمجهول السكان
من أدباء قطرنا السودانى فهو محبوب منهم وقد حدث أن راسله بعضهم إعجابا »
ومما يروى بهذا الصدد أن البريد قد حمل يوما إلى مطران وهو بالقاهرة رسالة
من السودان يقول فيها :رسالتها السودانى إن له صديقا عزيزا استأثرت به رحمة
الله فأصبحت حياته بعد فراقه لا تطاق ورجاه أن يبعث إليه بشيء من شعره
يكتبه على صورة الفقيد التى كانت مع الرسالة فلم يخيب الشاعر الرقيق الإحساس
صاحب الرسالة الحزينة الذى لم تكن له به معرفة شخصية بل نزل عند رغبته وأعاد
إليه الصورة بعد أن كتب عليها هذا الشعر الرصين :

يا صديقا شعرت إذ بان عنى أنه حيل بين روحى وبينى
نغدونا طيفين ترقى رسمى منه عين ورسمه نصب عيني
وخليل مطران فى نظر مجلة السودان الجديد بعد ذلك ثالث ثلاثة ما برحت
لهم الصدارة فى دولة الشعر العربى ، ويحكى عن مطران أنه قال : « أنا وحافظ
وشوقى يتكون منا شاعر » .

ونشرت مجلة صوت السودان فى ٣٠ من يناير سنة ١٩٤٥ حديثا لندوب
الجريدة مع شاعر العروبة مطران ومنه نستطيع أن ندرك رأيه فى الشعر العربى

واللهبة الشعرية وجو الإنتاج الفنى وختم حديثه بتحية كريمة إهداها إلى أبناء السودان جاء فيها :

يا إخوانى . . إذا خاضت النية وصدقت العزائم وانجهت القلوب اتجاهها يؤيده الإيمان فأبشروا بالخير الكثير ، إن الأمم تحيا ، إن الأمم تنهض ، إن الأمم تصبح ما تريد أن تكون فى هذه الدنيا بفضل العزائم التى يقدمها هؤلاء الفتيان وبفضل الأخلاق الكريمة التى يجعلونها فى خدمتها ونحن بكل قلوبنا نريد السودان أن يكون فى المستوى المعادل للمستوى الراقى فى سائر الأمم ناهضا علما وفنا وأدبا واقتصادا ومتخذ الرقيـه هذا كل الوسائل التى اتخذتها الأمم الأخرى من قبل . نحن نريد ألا يطول ذلك الأمد حتى نكون جميعا فى مستوى واحد ، وأن نوفق إلى إعطاء صورة تشرح الخصائص التى ميزنا بها مضافة إلى الفضائل العامة التى تجمع أبناء الوادى فى كل مكان .

تلك كانت تحية الخليل إلى أبناء السودان منذ أكثر من عشر سنوات وهى تحيـتنا لأبناء السودان اليوم .



کتاب جدید لباحث من انحرطوم

قرأت منذ أيام فصلاً ممتعاً للدكتور طه حسين في إحدى الجرائد اليومية الصباحية الكبرى عن كتاب جديد ظهر في السوق يسعى المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها وقد ألفه الدكتور عبد الله الطيب المجذوب المدرس بكلية الخرطوم الجامعية وبمهد اللغات الشرقية في جامعة لندن سابقاً وقد استهوانى هذا الفصل للمتعم إلى الاطلاع على هذا الكتاب ، إذ كان الدكتور طه حسين — في فصله — يكبر كل الإكبار هذا الكتاب ومؤلفه فأحببت أن أطلع على هذا الأثر النفيس الذى يستحق هذا الإكبار وغنى عن البيان أن « طه حسين » رجل دقيق فى أحكامه دقيق فى كلامه .

والواقع أنى وجدت الكتاب أهلاً لهذا الإعجاب وجديراً بهذا الإطراء وخليقاً بهذا الثناء فهو كتاب ممتع وهو يقوم على فكرة بسيطة ، وهى أن الشعر العربى من حيث الصناعة يقوم على الأركان الآتية: النظم والجرس اللفظى والصياغة ثم إلقاء الكلام على صور خاصة من الأداء وفى أساليب ومناهج تملأها عوامل التقليد والبيئة على مر الأزمان واختلاف الأمكنة وتؤثر فيها الأفكار المستعثة وما يجرى مجراها من دواعى التغير والتجدد . وقد جعل كتابه هذا ، تصوراً على ناحية النظم وهو يأمل أن يكتب كتاباً أخرى فى نواحي الجرس اللفظى والصياغة والبيان والبديع إلى آخر ذلك .

والواقع أن كتابه هذا يبشر بجودة كتبه القادمة فهو كتاب حسن الترتيب طيب التبويب وافر الشاهد كثير الأمثلة يؤثر البحث والإحصاء والاستقصاء وينفر من السطحية الفارغة التى لا تفيد علماً ولا تؤتى ثمرة ، ويتخلص من الحشو المرذول الذى لا طائل تحته ولا فائدة ترجى من ورائه .

وقد حرص الدكتور الطيب فى كتابه هذا على ضرب الأمثلة وسرد النماذج من الشعر العربى لتقديم الشعر العربى الحديث فهو تارة يروى عن الشنفرى

وامرىء القيس من العصر الجاهلى وحسان بن ثابت وكعب بن زهير من صدر الإسلام وأبى تمام والنجدى والمتنبى من العصر العباسى ، وتارة يروى عن على الجارم وعلى محمود طه والتيجانى بوصف بشير من العصر الحديث وهو فى العصر الحديث لا يختار نماذجه من الشعراء المصريين والسودانيين فحسب إنما يختار نماذجه من شعر المهجر وشعر المشرق جميعاً فهو يروى عن إلياس أبى شبكة وإلياس قنصل وغيرها وقد يتعدى الشرق إلى المغرب فيروى عن أبى القاسم الشابى شاعر المغرب المعروف الذى يسيل رقة وعذوبة . والأستاذ المؤلف لا يحرص على ذكر آراء كتاب الشرق فحسب إنما يحرص كذلك على الاستئناس بآراء كتاب الغرب فيعرض لآراء جب ومرجليوث ويغان أستاذ اللغة بكمبردج وكارموس ليال شارح المفضليات .

ومن هنا كان هذا الكتاب يرضى الأذواق جميعاً ويرضى الأمصار والأقطار جميعاً يرضى أهل المشرق لأنهم يجدون فيه شعراء هم يعرضون على مشرحة النقد والتحليل والتعليل ويرضى أهل المغرب لأنهم يجدون فيه صورة من تعاليمهم ولوناً من انتقادهم وضرباً من روحهم وقد استهل المؤلف كتابه ببيان أن النظم العربى يقوم على عمادين الأول البحر ويتكون عادة من عدد المقاطع الطويلة والقصيرة منظمة بطريقة خاصة والثانى القافية وهى الحرف الذى يجرى فى آخر البيت وقد ناقش الدكتور هذه النظم العربية فى الشعر وذكر أمثلة وشواهد من حديث الرسول تجرى على ما اتفق عليه العرب من أوزان كقولہ صلى الله عليه وسلم فى غزوة حنين . أنا النبی لا کذب ، أنا ابن عبد المطلب .

إلا أن الدكتور الطيب يخرج من هذه الشواهد إلى أنها حدثت حدوث الصدفة لا أكثر ولا أقل وجرت مجرى الاتفاقات النادرة دون تعمد ودون تكلف ودون قصد .

وقد خصص المؤلف المبحث الأول فى عيوب القافية ومجاسنها وأنواعها مثل « الإيطاء » وهو تكرار قافية بعينها « والإقواء » وهو المخالفة بين حركات

الإعراب في القوافي « والتضمين » وهو أن تعلق قافية البيت على ما بعدها فلا تكاد تستقل بنفسها .

وخصص المبحث الثاني لأوزان الشعر وموسيقاها وأوضح أن موسيقا الشعر أعران : النغم المنتظم وهو التفعيلات ثم جرس الألفاظ ، وقد تحدث في هذا المبحث عن التفعيلات وأجل الحديث عن الجرس إلى حين الحديث عن الصياغة والبيان .

وقد ناقش الباحث في هذا الفصل النخط الصعب من أوزان الشعر الذي يندر استعماله في الشعر العربي ، والأوزان المضطربة التي كرهتها آذان العلماء الأوائل فاعتبرها كأنها غير مستقيمة . ثم ناقش الأوزان القصار بأقسامها المختلفة والبحور التي يأخذ بعضها من بعض شيئاً من الوزن وضرباً من الموسيقى ثم تحدث عن البحور الطوال كالنسرحة والخفيف ثم عن الرجز وقص علينا الأساطير الشائعة في نشأته التي تجعله أقدم أوزان العرب إذ اشتق من حركة البعير وكان أول من نطق به معد بن عدنان حينما كان راكباً فسقط فانكسرت يده وجعل يصبح « يدي يدي يدي يدي » فكان هذا رجزاً . وذكر الباحث أنه قرأ أن معد ابن عدنان كان يقول « وايداه وايداه » وهذا ليس برجز بحال من الأحوال . وقد استخلص من هذه القصة نتيجة هامة في تاريخ أوزان الشعر العربي وهي أن الرجز ليس أقدم الأوزان كما قالت العرب ولا بد أن تكون الأوزان الأولى قد بدأت بصفة أقصر وأقل نظاماً .

وقد خصص للؤلف فصلاً من كتابه في الحديث عن أشعار شوقي التي تجري على بحر الكامل وأطلق عليها الكامليات . ولشوقي في الكامل عدة مذاهب حينما يحاكي أبا تمام وحينما يقلد النجدي وربما حاكي الشريف أو ابن هاني وقد ذكر الأستاذ الباحث في هذا الفصل نماذج متعددة من شعر شوقي كقوله :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والإسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها طويت وعم العالمين ظلام

وقد استحسن المؤلف قصيدة شوقي القافية وهو يخاطب النيل واعتبرها حية
النفس قوية الشعور ينظر فيها بعين الإنسانية الرحية الأفق العريضة الأرجاء
لا بعين الوطنية الضيقة :

من أى عهد فى القرى تندفق وبأى كف فى اللدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقق
وبأى نول أنت ناسج بردة للصفتين جديدها لا يخلق

والواقع أن الإعجاب بها لا يرجع إلى هذا فحسب إنما يرجع إلى عوامل أخرى.
منها المعانى العذبة والجرس الموسيقى الرخيم .

وبالبحث فى هذا الفصل الذى كتبه عن كاملات شوقي لا يتحدث حديث
العالم المحقق الذى يزن دقائق الأمور ويستجلى حقائق الأشياء فحسب إنما يتحدث
كذلك حديث الناقد مرهف الحس عذب الشعور قوى الملاحظة حاضر البديهة
الذى يحكم ذوقه الفنى فى الحكم على الأشياء ، ومن هنا جاء البحث طريفاً لطيفاً
يستهوئ النفوس ويستولى على مجامع القلوب . وقد أعلن الدكتور الطيب فى هذا
الكتاب رأياً خطيراً فى الأدب يهم الباحثين فى أدب مصر الحديث وهو أنه
لا يستطيع أن يقارن شعر حافظ إبراهيم بشعر أحمد شوقي والمسافة بينه وبين
شوقي كبيرة المدى وقد استقبح بعض أبيات لحافظ جاءت من بحر الكامل
مثل قوله :

شجراً أرى أم ذاك طيف خيال بل ذى فتاة بالعراء حيالى

واعتقد أن الإعجاب بهذه القصيدة يرجع إلى كثرة ذكرها وتلقينها للشباب
وحرص الأساتذة على تعليمها للنشء فى المدارس . ولكنى لا أوافق الأستاذ
الباحث على هذا رأى واعتقد أن حافظ دعامة قوية من دعائم الشعر فى العصر
الحديث . لحافظ فى كاملياته وفى غير كاملياته شاعر يسيل رقة وعذوبة ، ولنظمه
موسيقا عذبة تصل إلى القلوب وتشيع فى النفوس إعجاباً وتعلقاً بها .

حقاً كان حافظ يقل فى ثقافته عن شوقي ، ولم يتح له من أساليب الثقافة

الغرية ما كان لشوقي إلا أنه مع هذا كان كثير الاطلاع واسع المعارف دأباً على تصيد المعاني ، وهذا لا يتاح إلا للقليل من شعراء العصر الحديث وقد حاول الأستاذ المؤلف أن يتجنب — ما استطاع إلى ذلك سبيلاً — استخدام الاصطلاحات العلمية والقواعد الكثيرة التي أثقل بها العلماء كاهل العروض وأطلق على بعض البحور أسماء جديدة كأن أطلق على البسيط والمنهوك والمقتضب والمتقارب القصير محورا شهوانية لأن نغماتها لا تكاد تصلح إلا للكلام الذي قصد به قبل كل شيء أن يتغنى به في مجالس الشراب والرقص وضرب مثلاً على ذلك قول شوقي :

طال عليها القدم فهي وجود عدم
قد وثدت في الصبا وانبعثت في الهرم
ومنها قوله أيضاً :

تمرح في مأمن مثل حمام الحرم
مؤلف سربها حيث تلاقى التأم
مندفعات على مختلفات النغم
بين يد في يد أو قدم في قدم

وقد رأى الأستاذ الباحث في بعض شعر على محمود طه لونا من الحزن الخالص وهذا صحيح ولكنه ميزة من ميزات الأدب الرومانتيكي الممتاز كما وجد فيه لنا معنويا ولفظيا مع غموض في التشبيهات والصور والتعابير على وجه الإجمال مثل قوله حيث « يروى الموج في أرخم نبرة حلم ليل من ليالي كليوبترة » وعندى أن هذه الصورة لا غموض فيها ولا إبهام ، إنما هي صورة تاريخية تحمل ذكريات العالم الذي أعجب به شكسبير وجوته وغيرها من أعلام الأدب الأوربي .

ومما سهل طريق البحث في هذا الكتاب وجعل أدواته سهلة مؤدية — وهو يقع في حوالي خمسمائة صفحة — أن المؤلف خصص لكتابه فهرسا دقيقا للأعلام وراعى ترتيب الأعلام بحسب الكنى والألقاب والأنساب المشهورة .

فإذا أردت أن تنظر في أبي تمام فعليك ياب التاء لا الحاء ، إذ أبو تمام أشهر من حبيب بن أوس . وإذا أردت أبا الطيب المتنبي فعليك ياب اليم لا الطاء ولا الهمزة . ولم يلتفت إلى الأب والابن في ترتيب الأعلام الأولى وهذا التقسيم يجري على الأسس العربية في التبويب التي جرى عليها ملفيل ديوي وغيره . وهذه حسنة من حسنات هذا الكتاب يتعشى مدلولها مع اسم الكتاب نفسه فهو مرشد أولا وقبل كل شيء إلى فهم أشعار العرب وصناعتها . ومن أطرف اللمسات الفنية التي قرأتها في هذا الكتاب القيم إلى جانب عنايته بشرح أوزان الشعر وقوافيه والبحور وتفاعيلها وأجناسها وما يتفرع منها في شيء من الإسهاب والتفصيل ، رأيه في غزل العقاد . فهو يقول إن خلاصة مذهبه في الحب والجمال بحسب ما نجمده في ديوانه الأول أن الجمال كما يقول الفرنجة عبقرية في ذاته وأنه يتبقى للجميل ألا يضمن بالوصل وفي هذا يقول العقاد :

حبك حب الشمس فهي مضيئة وأنت مضيء بالجمال منير

ويقول في مقطوعة أخرى :

لن الجمال تعدد أتعده للناهينا

أم للذين تسللوا ختلا فطوبى للذينا

وهذا المذهب يجري على مبدأ المتنبي في قوله :

زودينا من حسن وجهك ما دام حسن الوجوه حال تحول

وصلينا نصلك في هذه الدنيا فإن المقام فيها قليل

وقد ناقش الأستاذ المؤلف عبد الله الطيب الأستاذ العقاد في رأيه هذا مناقشة ممتعة لذيذة وهذا على أية حال رأي يعلنه ومن شاء كان له من المؤيدين أو من المعارضين ، غير أنه رأى يدعو إلى كثير من التفكير ويشير جوا أدبيا طريفا قوامه الذوق وعماده الإحساس الفني الخاص .

هذا عرض عام لهذا الكتاب القيم الذي ألفه أحد أساتذة كلية الخرطوم

الجامعة في أوزان الشعر العربي وبحوره وأطلق عليه المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها .

وقد أشار في ختامه إلى أنه لم يتحدث في هذا الكتاب عن الجرس اللفظي ، والجرس اللفظي مهم جدا في إبراز موسيقا الأوزان كما أنه مهم جدا من حيث إنه المكون للكلمات التي يكون بها أداء الشاعر وعن طريقها تظهر المعاني التي يقصد إليها وذكر أنه سوف ينحصر كتابه التالي لهذا الغرض ونحن نأمل أن يحالفه فيه من التوفيق ما حالفه في كتابه الأول .

وليصدقني مؤلف هذا الكتاب الدكتور عبد الله الطيب وليصدقني قراء الدكتور عبد الله الطيب أن كتاب المرشد هذا كتاب طيب إلى أبعد الحدود جيد غاية الجودة ، وهو مرشد أمين ينفع السائرين ويهدي السارين في ليل الشعر وأرض الأحلام وعالم الخيال . يلتهمون كوكبا ينالق في سمائمهم ونجما يتلأأ فوق هاماتهم فيحيل ظلامهم نورا وطريقهم وضوحا وإشراقا ، فإذا العصى من الأمر يسهل وإذا العصى من الأمل يقرب وإذا العسير من الطلاب يهون .



تأثير نهضة الأدبية الحديثة في السودان

شهد العصر الحديث في مصر والشرق العربي نهضة أدبية واسعة وقد شملت هذه النهضة الضروب والألوان المختلفة للأدب من شعر ونثر وقصة ومسرحية وما إلى ذلك .

وقد قامت الترجمة بنصيب كبير في هذه النهضة وأتيح للأدب العربي الحديث منذ أوائل القرن الماضي أن يتعرف على الحضارة الأوربية وأن يطل من خلالها على آفاق جديدة في الحياة وكان ذلك عن طريقين رئيسيين : الأول طريق الترجمة أي نقل منتجات الفكر الغربي إلى اللغة العربية ، والثاني طريق الاطلاع المباشر على ما نشر في لغات الغرب من شتى العلوم والآداب .

وقد تناولت الترجمة في مصر كثيراً من الموضوعات العلمية والفنية ثم جنحت إلى الناحية الأدبية وقد أصاب من قال إن القرن التاسع عشر كان لحركتنا الفكرية الحديثة عصر ترجمة ، وإن هذا العصر لا يزال يمتد إلى وقتنا هذا وقد ذكر المستشرق كراتشفويسكي بعد الاطلاع على فهرس يحتوى على عشرة آلاف قصة مترجمة أن هذه القصص قد نشأت بتأثير الأدب الأوربي المباشر ، وما يصدق على القصة يصدق على سائر ألوان الكتابة .

وقد أخرجت المطبعة العربية عام ١٩٠٣ ترجمة شعرية لإلياذة هوميروس بقلم الشاعر سليمان البستاني ، كما ظهرت عام ١٩١٢ ترجمة لرباعيات الخيام لوديع البستاني ، ثم تصدى لترجمة الرباعيات من الفارسية رأساً عدد كبير من الأدباء وكثرت الترجمة عن الإنجليزية والفرنسية ومن عني بالترجمة عن الفرنسية الشاعر المصري محمد عثمان جلال ونجيب حداد وإلياس أبو شبكة ثم طه حسين و خليل هنداوى ومحمد مندور وإبراهيم المصري ، ومن عني بالترجمة عن الإنجليزية خليل مطران ومحمد عوض إبراهيم وعباس محمود العقاد وتوفيق أحمد البكرى ومن عني بالترجمة عن الألمانية محمد عوض محمد وعبد الرحمن بدوى وسليم سعده وغيرهم .

وقد كان لهذه الترجمات أثر كبير في السودان وساعد ظهورها على انتعاش الروح الأدبية وتقدم الحياة الفكرية .

وقد جاء في مقال للأستاذ إسماعيل فوزي — أحد كتاب الطليعة في السودان — في مجلة النهضة السودانية لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ محمد عباس أبو الريش ، جاء في هذا المقال أن الترجمة هي الدرجة الأولى في سلم التطور الأدبي عند الأمم ويرى الذي يستقرى تاريخ التطورات الأدبية في كل العصور وعند جميع الشعوب أن عصور الترجمة سبقت عصور التصنيف والوضع والنهضة الأدبية المصرية الحديثة أقرب شاهد على هذا فقد كان جميع أدباء هذه النهضة البارزين مترجمين قبل أن يكونوا كتابا .

وهكذا استعان الكتاب السودانيون بالترجمة ، وترجموا أقاصيص ومسرحيات وبحوثاً تاريخية وأدبية . وقد عنيت مجلة الفجر السودانية التي يرأس تحريرها الأستاذ عرفات محمد عبد الله عناية خاصة بترجمة الآثار الغربية ونقل تراث الفكر الغربي إلى اللغة العربية كما اهتم المستشرقون أمثال جاكسون وأديسون وكراوفوت اهتماماً بالغاً بنشر الثقافة العربية وصقلها للباحثين .

ووجد الشاب السوداني نفسه في حاجة ملحة إلى دراسة المعلومات العامة وخاصة ما يسمونه علم الموسوعات ووجد من يطمح إلى قراءة موجز للتاريخ كتبه ويلز أو علم الحياة لويلز وولده وجوليان هكسلي ومن يريد أن يتوفر على قراءة موجز الآداب والفنون لجون درنك ووتر وصحبه وتاريخ المؤرخين للدنيا لناشره همودرث وغير ذلك من الموسوعات .

لا عجب أن تجد الثقافة الغربية سيلها إلى السودان . حياة الشرق والغرب أخذت في التقارب والاحتكاك منذ قديم الزمن ، وتراث الإنسانية الفكرى تراث مشترك ولا تعرف دنيا الفكر التناحر والتنافر والدسائس التي تسود عالم السياسة والاقتصاد .

مهما يكن من شيء فإن نهضة الترجمة في مصر تبعثها نهضة أخرى كبيرة

في السودان كما أنها أطلعت الشباب السوداني على ثمرات طيبة من الفكر العربي والثقافة الأوربية الجديدة .

ولم تكن النهضة الأدبية في مصر والشرق العربي مقصورة على النهضة في الترجمة بل شملت شتى ضروب الأدب كما قلت وقد اهتم الكتاب المحدثون اهتماماً شديداً بكتابة القصة والمسرحية وشاعت كتابة القصة القصيرة في هذا العصر شيوعاً واسعاً حتى أصبحت من أهم أبواب الأدب كما أننا إذا التفتنا إلى الرواية أو القصة الطويلة وجدنا أنها من ثمار النهضة الحديثة فإن القدماء قلما عنوا بها . والذي وصلنا من قصصهم الطويلة مثل سيرة عنتره وقصص سيف بن ذي يزن وبنى هلال ويبرس ، ليس في الحقيقة إلا أخباراً بطولية وضعت أو جمعت للتفكهة . وما يقال عن الرواية يصدق على المسرحية إذ أن هذا الفن على حد تعبير الأستاذ زكي طليمات دخل إلينا فيما دخل من ألوان الثقافة الغربية حينما أخذت بصائرنا تتفتح على أوربا وتنهل من فنونها وأدبها بحكم ذلك الاتصال الاجتماعي والثقافي الذي توثق منذ أوائل القرن الماضي .

ولقد اهتمت الصحف والمجلات السودانية منذ فجر العصر الحديث بالقصة ، ونشرت مجلة النهضة السودانية ومجلة الفجر أقاصيص شتى يدور بعضها حول الحب أو الزواج أو تعالج المشاكل الاقتصادية أو الأسفار والمغامرات أو حياة الرقيق . والعجيب أننا نجد في هذه القصص صوراً من المشاهد العاطفية الكبرى كما نجد في ماجدولين أو آلام فرتر أو صحائف سن العشرين للشاعر الفرنسي لامارتين وقد نشرت مجلة الفجر السودانية مسرحية بعنوان زواج المصلحة في خمسة فصول حاول كاتبها أن يقتفي آثار كتاب الغرب في عرضه وحواره كما كتب الأديب السوداني عثمان محمد هاشم قصة تاجوج التي كان لها أكبر الأثر في الأوساط الأدبية السودانية .

وقد شهد العصر الحديث نهضة واسعة في الصحافة والأسلوب الكتابي ، وبعد أن كان الكاتب البارع من يدبج الفصل الطويل المسجع يملأ به صفحات

جريدته وإن خلا من المعنى وضاع المراد منه في الحشو من الكلام ، أصبح الكاتب هو من يعالج الموضوع معالجة المصور ، يرسم ما يريد تصويره... حتى يبرز لعين الناظر صحيحاً . وأصبحت الكثرة المطلقة من الذين يقرءون الصحف والكتب في العصر الحديث تحرص على شيئين : الأول أن يقدم إليها ثمر فصيح مستقيم اللفظ نقي الأسلوب برىء من الابتذال حر من أغلال البديع والبيان ، والثاني أن يكون هذا الثمر على ما قدمنا ملائماً لذوقها الجديد وميولها الجديدة ، قيم في معناه كما هو قيم في لفظه حر في معناه كما هو في لفظه .

وقد تأثرت الصحافة السودانية بهذا الأسلوب الجديد ووجدناها تتحرر من الأسلوب العتيق وتنوعت الكتابة الحديثة بفضل الثقافة الحديثة وانتشار المطابع ، وأصبحت ترتاد موضوعات جديدة طريفة كتلك التي نجدتها في مقالات النهضة أو الفجر أو صوت السودان أو غيرها من الصحف والمجلات .

ومما هو جدير بالذكر أن السودانيين اتجهوا في العصر الحديث إلى كتاب مصر وصحافتها ، وعرف كتاب السودان خصائص كل أسلوب من أساليب كتاب مصر فكتب الأستاذ الأديب عرفات محمد عبد الله يقول :

« إن أسلوب هيكل من النوع الاستطرادي المتسلسل وليس بالعميق الفكري كالعقاد ولا بالمتحيز الأسلوب كطه حسين ولا بالشرقي الديباجة كأحمد حسن الزيات ولا بالبارع في تصوير الحياة كالمازني . . . » .

وهذا المقال إن دل على شيء فإنما يدل على أن السودانيين كانوا ولا يزالون حريصين كل الحرص على الاطلاع على الثقافة المصرية وقراءة أدب الكتاب المصريين . وإنه مامن نهضة في مصر الا ويكون لها أثر ، أى أثر — كما جاء في إحدى القصائد التي نشرها الشاعر عبد الله عبد الرحمن — في السودان . وقد صدقت دعوة أحد الأدباء في مجلة الرسالة حين قال : « لقد كان لزاما على أدبائنا وشعرائنا أن يلموا بالكثير من الأدب العربي الحديث في مصر وجاراتها من بلاد الشرق العربي كما يلموا إلماما حسنا بأصول الأدب العربي ويطلعوا على الحديث منه بوجه خاص

قَبِلَ أَنْ يَحاولُوا الإنتاج الأدبي الثمر الذي يريده لهذه البلاد المخلصون المتفانون
من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة .

وقد كان عبد الله عبد الرحمن نموذجاً رفيعاً للشعراء السودانيين الذين تأثروا
بالكتاب والشعراء والمفكرين في مصر فنظم قصيدة طويلة تعرض فيها لهؤلاء
الأقطاب من رجال الفكر والأدب الذين كان لهم دور كبير في الحركة الفكرية
في البلاد .

ولا أكذب الرحمن في العصر أنجم حماة لها من غيرة تتوقد
وصيابة أدت أمانة قومها وقامت على ضوء الرسالة ترشد
يطالعنا الزيات فيها بنافع من القول لا يطغى ولا يتقيد
وهيكل في أثوابه أي كاتب خصب إلى خير الأساليب يعمد
ولله طه بن الحسين فإنه على ثره الفذ الخناصر تعقد
وإن تذكر الكتاب فاذا ذكر غريبهم شكيا ففي آثاره ما يخلد

ففي الآيات السابقة نلاحظ مدى تأثر عبد الله عبد الرحمن بالكتاب الذين
تألفت أسماؤهم وازدهر إنتاجهم في مصر وكان له صدى جليل في السودان
كالكاتب الكبير أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة ومحمد حسين هيكل الباحث
الكبير وطه حسين عميد الأدب العربي وشكيب أرسلان المفكر الإسلامي الذي
ذاعت مقالاته في شتى الأقطار والأمصار وحمى حوزة الدين بدفاعه المجيد عن
الإسلام والمسلمين وتاريخه لأجادهم العظيمة وحضارتهم الزاهية . كما حمل عبد الله
عبد الرحمن الشعور نفسه بالقياس إلى أحمد زكي باشا كاتب العروبة والمؤرخ
هو المحقق العربي العظيم فقال عنه :

زكي نصير العرب في كل موطن يهول وماضيها الذي تتقلد
بوكان الرجال العبقريون إن قضا بما لهم من شامل النفع خلدوا
لقد كنت برا بالعروبة كلها وفي نصرها قد كنت لا تردد

ولم يكن أثر الشعراء المصريين أقل فاعلية من أثر الكتاب والمفكرين
وقد سجل الشاعر ... الشاعر نفسه إزاء الشعراء المصريين ، بل الشعراء العرب
في شتى البلاد العربية ، مما يدل على تطلع السودانيين إلى أدب العروبة أينما كان
وحيثما وجد ، كما ينم عن مطامعهم الواسعة وآمالهم العريضة ورغبتهم الشديدة
في الاطلاع والتزود بأساليب الثقافة والمعرفة المختلفة ، قال عبد الله عبد الرحمن :

ومطران يسمو للخيال مصعدا فيألفه وحشيه المتأبد
ويعجبنى شعر المهاوى فإنه رصين قويم ليس فيه تحقد
جميل الزهاوى والرصافي كلاهما هو اليم في آذيه (١) يزيد
أقاما بأرض الرافدين ليرفدا وودا لو ان الناس طرا تبغددوا

وقد كان التمسك بالعروبة والحرص على استخدام اللغة العربية السليمة مذهب
لرجال الفكر في السودان لا يحيدون عنه ولا يتهربون منه ولا يزهدون فيه .
ومثل هذا الاتجاه الشاعر عبد الله عبد الرحمن خير تمثيل حين قال في قصيدته
السابقة :

بنى العرب في السودان والشرق كله بكم ولكم يورى زنادى ويصلد
أفيقوا فإن الوقت سيف مجرد عليكم ووقت الناس في العرب عسجد
إذا لم نشخص داءنا فدواؤنا عسير وفي إغفاله ما يهدد
يهدد نهضات بدت في شبابنا جديدا وخوفي أنها سوف ترقد
علوم اللسان لو علمتم كثيرة وفي جهالها ترك لما هو أوكد
وأولها أن تروى الشعر ناصعا عن العرب لا يسمو إليه المولد
وأن تقتل الألفاظ نهما وتنقى أحاسنها يوم الكتابة تقصد
فياليت شعري هل ملأتم وطابكم من العلم حتى تكرموا وتمجدوا

(١) الآذى : الأوجاج .

وهكذا كانت الحركة الثقافية في مصر ذات أثر كبير في السودان ، وكان لإقبال المصريين على العلم والتزود بالثقافة الحديثة أثر كبير في تهيئة السودانيين لاستقبال التيارات الحديثة والأفكار الجديدة ، كما وجد السودانيون أن اللغة العربية السليمة هي الرباط الذي يربط السودان بتلك العروبة ، والوثاق الذي يدعم القومية العربية ، ومن أجل ذلك حرصوا على التمسك بأهداب العربية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .



سینتوئی والیستووان

يحتفل في الرابع عشر من شهر أكتوبر كل عام بذكرى وفاة أمير الشعراء
أحمد شوقي إذ انتقل إلى رحمة الله تعالى عام ١٩٣٢ ففقد الأدب عند وفاته
ركنا ركينا من أركانه ، كما تقوض صرح الشعر بعده .

وتمر الأيام وتتابع السنون ، والعالم العربي يفتقد شاعراً من طراز شوقي
أمير الشعراء ، فقد كانت ولادته حدثاً عظيماً في تطور الأدب العربي الحديث ،
له مظاهره البينة وله آثاره التي لا يمكن أن يغفلها الباحثون في تاريخ الأدب العربي .

لم يكن أحمد شوقي صاحب لون معين من الثقافة إنما كان واسع الأفق
متباين الثقافات عكف على شعر الأوربيين قراءة ومبحثاً ، فتجلت في شعره نقشات
من روحهم ووضات من فهم ، كما عكف على شعر البحري والتنجي وأبي نواس
وغيرهم وحاول أن يقلدهم حيناً ويعارضهم حيناً آخر ، حتى يثبت لقراءه أنه
يستطيع أن يقف مع هؤلاء الشعراء في صف واحد ومضمار واحد وأنه لا يقل
عنهم شاعرية ولا فنا ولا ينقص عنهم طول نفس .

ولكن عبقرية شوقي لا تأتي إليه من هذا الباب ، إنما تأتي إليه من باب
آخر ، تأتي إليه من أنه شاعر بالطبيعة ، شاعر لا يتصنع الشعر ، ولا يتكلف
القصيد ، إنما يصدر عنه الشعر كما يصدر الماء عن الينبوع وكما ينبعث الضوء
عن المصباح وكما ينطلق الغناء عن الطير .

وأحمد شوقي يشبه في ذلك الشاعر الفرنسي لامارتين الذي شدا بقوله :
« اننى أقرض الشعر كما يغرد البلبل ، ويهدر الجدول ، وتصغر الريح » .
وأحمد شوقي يشبه في ذلك أيضاً الموسيقار البعري موزار ، الذي سأله

أحد الشبان يوما : « كيف أستطيع أن أؤلف السيمفونيات ؟ » فرد عليه قائلا :
« لا بد أن تبدأ بالقطوعات الصغيرة قبل أن تؤلف السيمفونيات » فاعترض عليه
الشاب قائلا : « ولكنك ألقت السيمفونيات وأنت في العاشرة من عمرك »
فأجاب موزار : « لكني لم أسأل كيف أؤلفها ! » .

وهكذا كان شوقي ، فقد نظم الشعر في ميعة الصبا دون معلم ودون مدرسة
إذ انسكب الشعر في روحه بقوة الإلهام وفيض الشاعرية . وروى أنه عندما
كان طفلا كانت عيناه لا تهبطان إلى الأرض إنما تتصفحان وجه السماء فاضطرت
أمه أن تنثر أمامه على الأرض قطعاً من الذهب النضار حتى تتعلق عيناه بالأرض .

ولقد جال شوقي بشعره في كل غرض ، وقصد كل مقصد ، وأصاب كل معنى
وساير المدنية الحديثة في تطورها . فوصف الطائفة ووصف الدبابة وغيرها من
المخترعات الحديثة كما مزج الثقافة الأوربية بفنه الشعري وقرض الشعر للكبار
كما قرضه للصغار ... في أسلوب رقيق ، وخيال عذب طليق .

وطال نفسه في أكثر من قصيدة إلى ما لم يطل إليه نفس الكثير من
الشعراء ، فما ضعف ولا تخلخل ولا أسف ، وما فتر خياله ، أو وهنت معانيه .

وكانت هذه الإطالة تدفعه إلى استعمال كثير من الألفاظ العربية القديمة
التي تدل على تعمقه في دراسة اللغة واستيعابه لكتب الأقدمين ووفرة محصوله
من التراث العربي الأصيل .

على أن هذا لا يعني أن « شوقي » كان عربى الثقافة فحسب ، إنما كان كثير
الاطلاع على الأدب الغربى ، قرأ بالفرنسية لأئمة البيان في الغرب وأساغ ما استعار
من هذا الأدب كما أسهم في رفعة المسرح العربى فكتب طائفة من المسرحيات .

العربية ، منها : مجنون ليلي ومصرع كيلوبترا وقبيز والست هدى وأميرة الأندلس
وعلى بك الكبير وغيرها . ومهما جارت بعض هذه المسرحيات على التقاليد
المسرحية المرسومة وحادت عن الفن المسرحي الأصيل فإن شوقي يعد باعثاً
جديداً لفن جديد .

ولم يكن المسرح المصري قبل شوقي يعرف المسرحيات الشعرية إلا لاما ،
إنما كان يعرف أنماطاً متعددة من التمثيل حيناً والغناء حيناً آخر ولكنه لم يكن
يستطيع أن يثبت وجوده ككائن حي له خصائصه ومميزاته وله آثاره
الفنية الخالدة .

ولم يتح لشوقي أن يزور السودان وأن ينتقل بين ربوعه كما تنقل حافظ
إبراهيم وكما سافر خليل مطران غير أن هذا لم يصرفه عن التعلق بالسودان
والحبة لأهله والإيمان بقضاياها وتصوير الأحداث التاريخية الأخرى التي تحدث
بين جنباته ، إذ كان شعره صدى للحوادث في وادي النيل من مصره إلى سودانه
ومن شماله إلى جنوبه :

وقد كان شوقي يؤمن باتحاد شطري وادي النيل . ومن أجل هذا الغرض
سطر القصائد الجياد ، وعندما احتفلت البلاد بالذكرى السابعة لوفاة مصطفى كامل
نظم شوقي درة لامعة من شعره تناول فيها ما أصاب البلاد من تشاحن صدع
وحدتها وشتت شملها ، وقد أشار في هذه القصيدة إلى استحواذ المستعمر على
السودان مما يحز في النفس ويؤثر في القلب فقال :

إلام الخائف بينكمو إلاما وهذي الضجة الكبرى علما
وفيم يكيد بعضكمو لبعض وتبدون العداوة والخصاما
وأين الفوز ؟ لا دهر استقرت على حال ، ولا السودان داما

ولما اعتزم سعد زغلول السفر إلى إنجلترا للمفاوضة مع حكومتها — وكان على رأس الوزارة المصرية يومئذ — ترصد له شاب في محطة القاهرة وأطلق عليه النار فأصيب برصاصة أعجزته عن السفر وأبقته في القاهرة ملازماً فراشه أياماً أخرى وذلك نتيجة لتعارض آراء الأحزاب السياسية في المفاوضة ولاكن الله نجاه ووقى البلاد شر فتنة كادت تعصف بين الأحزاب فنظم شوقي هذه القصيدة تهنئة له وحضاً على الإصلاح العلى وتذكيراً بمنزلة السودان وقناة السويس وهما من مصر بمنزلة الروح من الجسد . . . قال شوقي فى ذلك :

ويا سعد أنت أمين البلا د قد امتلأت منك أيمانها
ولن ترتضى أن تعد القناة ويتر من مصر سودانها
وحجتنا فيها كالصبا ح وليس بمعيبك تبيانها

ولقد كانت الأمة فى ذلك الوقت تلتف حول سعد وتتخذة ساعدها الأيمن فى الخطوب والملمات وإذا كانت الإسكندرية جزءاً من مصر وكانت غير الإسكندرية من بلدان الوجه البحرى أو القبلى جزءاً من مصر فكذلك القناة جزء لا يتجزأ منها ، وقل مثل ذلك بالنسبة إلى السودان فقد جمعنا والسودان ضرورة طبيعية واقتصادية وصلات أنساب ووشائج أرحام هيأت أن تنفصل أو تتفرق ، وهى واضحة وضوح الشمس مشرقة إشراق الصباح المنير ولن تعوزنا الحجة فى تبيانها . . . يقول شوقي :

فمصر الرياض وسودانها عيون الرياض وخاجانها
وما هو ماء ولكنه وريد الحياة وشريانها
وأهلوه منذ جرى عذبه عشيرة مصر وجيرانها
وتم مصر ينابيعه كما تم العين إنسانها

وإذا كان القدر قد أتاح للسودان أن يفصل عن مصر في التاريخ الحديث ،
بعد ما قرر السودان مصيره فإنه لا تزال هناك روابط متينة وأواصر مكنية
تربط بين الشعبين الشقيقين ولا تزال القومية العربية . . للتأصلة في هذين
البلدين تأصل التاريخ والعريقة عراقة الزمن ... تربط بين هذين العالمين
برباط وثيق لا تنفصم عراه ولا تبلى جدته على الرغم من تتابع الأعوام
ومرور الأيام .



حَافِظَ وَرَحْلَتِهِ إِلَى السَّوْدَانِ

يعتبر حافظ إبراهيم من أحب الشعراء إلى نفوس المصريين والسودانيين على السواء وكان شعره رصين المبني ، أما هو فقد عمل ضابطا بالجيش وتدرج في رتبة العسكرية المختلفة حتى أحيل إلى الاستبداع . وقد أتيح له أثناء عمله في الجيش أن يسافر إلى السودان مع البعثة العسكرية المصرية ، بيد أن الظروف لم تكن طيبة وكانت الثورة على الانجليز عارمة فاتهم مع نفر من الضباط بالتمرد والعصيان وأحيلوا إلى المحاكمة وحكم عليهم بالسجن مددا مختلفة وأرسلوا إلى مصر ليقضوا فيها فترة السجن .

ولذلك كانت الفترة التي عاشها حافظ في السودان مريرة بالنسبة إليه غير أنه كان يحمل لأهل السودان المودة والحب والإخلاص والتقدير . وفي ليالى سطيح نجده يحاول أن ينبه الأذهان ويفتح الآذان للخدع البريطانية التي هي أشبه بالقرش الذي يتراءى خيله على ضفة الماء حتى إذا ما حاول للمرء أن يقبض عليه بيديه هوى إلى الحضيض وقد كتب حافظ من السودان متشوقا إلى أحد أصدقائه في مصر يقول .

رمت بها على هذا الشباب	وما أوردتها غير السراب
وما حملتها إلا شقاء	تقاضيني به يوم الحساب
جنيت عليك يا نفسي ، وقبلي	عليك جنى أبي فدعى عتابي
قلولا أنهم وأدوا ياني	بلغت بك النى وشفيت ما بي
سعيت وكم سعى قبلي أديب	فآب بنحية بعد اغتراب
وما أعذرت حتى كان نعلي	دما ووسادتي وجه التراب
وحق صيرتني الشمس عبداً	صبيغا بعد ما دبغت إهابي
وحق قلم الإملاق ظفري	وحق حطم القصدار نابي
مق أنا بالغ (يا مصر) أرضا	أشم بتربها ريح المنلاب

رأيت ابن البخار على رباها يمر كأنه شرح الشباب
كأن بجوفه أحشاء صب يؤجج نارها شوق الإياب
إذا ما لاح ماء لنا النياقي أبرق الأرض أم برق السحاب ؟

وكتب إلى الإمام محمد عبده في السودان يصور وحدته ووحشته واستبداد
ذلك الجبار العنيد كتشنر باشا سردار الجيش المصرى إذ ذاك ، وكان بينه وبين
حافظ نفور وجفوة حتى يقال إنه لغضبه على حافظ كتب أمام اسمه (لا يرقى
ولا يرفق) .

كتب حافظ إبراهيم إلى الإمام محمد عبده يقول : « لقد حلت السودان
حلول الكليم في التابوت والغاصب في جوف الحوت بين الضيق والشدة
والوحشة والوحدة لا بل حلول الوزير في تنور العذاب والكافر في موقف
يوم الحساب بين نارين نار القيظ ونار الغيظ » .

ويقصد حافظ إبراهيم من هذا الحديث أنه حل في السودان حلول النبي
موسى عليه السلام في تابوت في اليم أو أنه مثل يونس عليه السلام الذي التقمه
الحوت ثم خرج من جوفه ، بل إنه حل حلول الوزير أبي جعفر محمد بن عبد الملك
الزيات وزير الخليفتين المعتصم بالله والواثق الذي كان يضع من يأمر بقتله في
تنور من النار شديد الأوار .

ويمضى حافظ إبراهيم يسرد للإمام محمد عبده المظالم التي يلقاها من كتشنر
والآلام التي يحسها نتيجة لذلك :

« واليوم أكتب إليه وقد قعدت همه النجمتين وقصرت يد الجديدين عن
إزالة ما في نفس ذلك الجبار العنيد فلقد نما ضغنه على وبدرت بوادر السوء
منه إلى ، فأصبحت كما سر العدو وماء الحميم وآلامى كأنها جلود أهل الجحيم
كلما فضح منها أديم تجدد أديم وأمسيت وملك آمالي إلى الزوال أسرع من أثر
الشهاب في السماء ودولة صبرى إلى الاضمحلال أحت من حباب للاء ، فنظرت

في وجوه تلك العباد وإني لفارس العين والفؤاد فلم تقف فراستى على
غير بابك .

وهكذا مضى حافظ إبراهيم يستنجد بالشيخ الإمام محمد عبده مصورا ذلك
الاضطهاد الذي لاقاه من كتشنر والذي لولاه لكانت أيامه في السودان كلها
سعادة وهناء وعزا ورخاء . وقد كان هذا الشاعر صاحب حاسة أدبية مرهفة
حلوة ، اختلف ذات يوم مع خليل مطران أيهما أجمل أو بعبارة أصح أيهما
أقبح من الآخر فكان حافظ يدعى أنه أجمل منه ومطران أقبح منه . وطال
الخلاف بينهما حتى اتفقا على أن يحتكما إلى الشاعر إسماعيل صبرى وكان شاعراً
بارعاً يشغل منصب النائب العام فذهبا إليه وشرحا دعواهما ، وبعد أن أطل
النظر في وجه كل منهما أعلن ختام المحاكمة وأصدر حكمه يقول : « حافظ
إبراهيم أجمل قرد و خليل مطران أقبح إنسان » وعند ذلك انصرف كل واحد
منهما وعنده أنه حكم له على صاحبه ، وكان حافظ يقول : « لقد حكم إسماعيل
صبرى لى لأنه قال أجمل قرد وقد وصفنى بالجمال على كل حال فى حين وصف
مطران بالقبح » .

وكان حافظ إبراهيم حافظا لكثير من أشعار القدامى والمحدثين وكان يقرظ
بشار بن برد ويروى من شعره ويطنب المدح فى أبى نواس وكان يعجب بقوله :

أخذت بحبل من جباله محمد أمنت به من طارق الحدثن
تغطيت من دهرى بظل جناحه فعينى ترى دهرى وليس يرانى

وكان يثنى على صريع الغواني مسلم بن الوليد ويرفع من قدر أبى تمام
الطائي ويصفه بأنه شاعر العظام ، كما كان يحب البحتري ويعتبره سيد المطبوعين
وأفدر الشعراء على حسن التأدية وكان يقول « إذا تلوت شعره ظننت أننى
أقعد فى حضنه أداعبه ويداعبنى وأفهم عنه ويفهم عنى بل أحيط بما فى نفسه
كما يحيط بما فى نفسى . . . وكان حافظ صادق الشعور ، يتدفق الإحساس
ولا سيما فى شعر الرثاء وقد رثى عدداً كبيراً من أصدقائه بدمع هتون وزفرات

حارة تقطع نياط القلوب لما كان بينه وبينهم من صلة قوية متينة وفي هذا يقول الشاعر :

ولى الشباب وجازتني فتوته وهدم السقم بعد السقم أركانى
وقد وقفت على الستين أسألها أسوفت أم أعدت حراً كفانى
شاهدت مصرع أترابى فبشرنى بضجعة عندها روى وريحانى
كم من قريب نأى عنى فأوجعنى وكم عزيز مضى قبلى فأبكاني
إني مللت وقوفى كل آونة أبكى وأنظم أحزانا بأحزاني
إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى وجدت شعر المراثى نصف ديوانى
فأزلونى مكاناً أستجم به وينجلي عن فؤادى برح أحزاني

وقال حافظ إبراهيم :

رويدك حتى يخفق العلمان وتنظر ما يجري به القتيان
فما مصر كالسودان لقمة جائع ولكنها مرهونة لأوان
دعاني وما أرجفنا باحتماله فإني بمكر القوم شق زمانى
وإن غاصت الأمواه عن كل مزبد وخرت بروح الرجم للحدثان
وعاد زمان السامرى وربى وحكم فى الهيجاء كل يمانى
هناك اذكروا يوم الجلاء ، ونهبوا نياما ، عليهم يندب الهرمان

كتب حافظ هذه الأبيات فى فترة مظلمة من تاريخ القطرين الشقيقين وكان الإنجليز يمدون يد البطش إلى الأهالى ويحاولون بشتى الطرق استنزاف ثروات السودان والاستحواذ على خيراته . ولكن الله لم يشأ لهم الانتصار فقد وقف لهم التاريخ بالمرصاد وهبت الحركة للباركة فى وادى النيل وكان من أثرها استقلال السودان وتخلصه من نير الإنجليز بعد استفتاء شعبى عام . وكان السيد الرئيس جمال عبد الناصر يقف خلف هذا الانتصار العظيم الذى حققه القطر الشقيق فمحا هذه الصفحات السود ، وأشرقت صفحات بيض مليئة بالعزة والكرامة والمجد والنصر .

نظرات فی شعر الشیخ ابوالحسن

التيجاني يوسف بشير شاعر ممتاز من شعراء السودان ولد في أم درمان سنة ١٩١٢ واممه أحمد ولقب بالتيجاني تيمنا بصاحب الطريقة التيجانية ووالده هو الشيخ يوسف بشير ابن الإمام جزري الكتيابي .

حفظ القرآن في الخلوة (أو المكتب) على يد عمه الشيخ محمد القاضي الكتيابي ثم التحق بمعهد أم درمان العلمي وتخرج منه ثم اشتغل بالصحافة والأدب إلى أن انتقل إلى رحمة الله عام ١٩٣٧ وهو في الخامسة والعشرين من عمره .

ويمتاز شعر التيجاني بالركة والعذوبة والسلاسة والسهولة والحلاوة والفعولة ومن يطيل النظر في شعره يزيده استهواء وأسرا ويتملكه إعجابا وسعرا .

ويعد التيجاني من أرق الشعراء في العصر الحديث وله ديوان جمع من الشعر أعذبه هو ديوان « اشراق » وقد صدره بهذه القصيدة :

قطرات من الندى رقراقة	صفق البشر دونها والطلاقة
ضممتها من بهجة الورد أفوا	ف ومن زهر القرنفل باقة
ثرت عقدها أصابع من نو	ر ترسلن خفة وأناقه
رب وشى تمقن في صفحة الو	د ونضرن في الربى أعماقه
ومصاييح أسرجتها يد الشم	س وضاء في زهرة خفاقه
يتقطرن أنجما في أكالي	ل من الزهر أسرجت أوراقه
قطرات من الصبا والشباب ال	غض مناسبة به منساقه
ورهام من روى الهائم الوا	هان أمكنت في الزمان وثاقه
ظل يهفو إلى السماء ويشكو	لوعة الروح ها هنا واحتراقه

يتحدرن في معابد أيا مى حنينا أسمىته « إشراقه »
قطرات من التأمل حيرى مطرقات على الدجى مبراقه
يرسلن في جوانب آفا فى شعاعا أسمىته « إشراقه »

ويمتاز شعر التيجانى بنزعة صوفية صادقة وخيال طلق جميل وديباجة عذبة
أنيقة وعبارة حلوة رقيقة ومن شعره فى التصوف قصيدة « الصوفى المذهب »
وقد جاء فيها .

هذه الذرة كم تحـ مل فى العالم سرا
قف لديها وامتزج فى ذاتها عمقا وغورا
وانطلق فى جوها الملو ، إيمـــــــــــــــــانا وبرأ
وتثقل بين كبرى فى الذرارى وصغرى
تر كل الكون لا يفـ —تر تسيحا وذكرى

وقد ذهب الشاعر فى هذه القصيدة « الصوفى المذهب » مذهب الفلاسفة
الذين يؤمنون بوحدة الوجود ، ويستخدمون فكرة الحب الإلهى فيما يسجلونه
من دعوات صادقة إلى الله وابتهالات إلى الذات العلية ، وفى ذلك يقول
التيجانى :

الوجود الحق ما أو مع فى النفس مداه
والسكون المحض ما أو ثق بالروح عراه
كل ما فى الكون يمشى فى حنــــــــــــــــاياہ الإله

هذه النملة فى رقتها رجع صدها

هو يحيا فى حواشيها وتحيـــــــــا فى ثراه
وهى إن أسلمت الروح ح تلقتهـــــــــا يدها
لم تمت فيها حياة الله إن كنت تراه

ويزخر ديوان «إشراق» بصور رائعة من تقديس الجمال الإلهي والجمال البشري
وجمال الطبيعة ويدل دلالة واضحة على أن صاحبه شاعر مرهف الحس رقيق
الشعور صافي الوجدان يفعل بكل ما يرى ويسمع ويلبس وتترأى هذه
الانفعالات في نفسه ثم تنعكس على شعره فيستهوى القلوب ويطرب الأسماع

وعبدناك يا جمال وصفنا لك أنفاسنا هياما وجبا
وحبوناك ما يزيدك بالغز وضوحا وأنت تفتأ صعبا
وذهبنا بما يفسر معناك بعيداً وأنت أكثر قربا
من ترى وزع المفاتن يا حسن ومن ذا أوحى لنا أن نجبا
من ترى علم القلوب هو الحسن وقال اعبدي من السحر ربا
إنه صانع القلوب التي تنصب في قالب المحاسن صبا

فالتيجاني يؤمن بأن وراء هذا الجمال البشري والجمال الطبيعي جمالا أسمى
وأعلى من الجمال الدنيوي ، هو الجمال الرباني الذي يوحى ويلهم والذي يصنع
القلوب التي تنفخ للجمال وتهتز للسحر .

وكما رنا ببصره إلى الجمال الإنساني أدرك خالق هذا الجمال فرغ بصره
إلى السماء في خشوع وإبتهاك وطفق يسبح للواحد القهار الذي خلق آيات الجمال
فإذا فيه ضلال لعقل وهدى لجنون :

إيه طير الشباب من صاغ هذا الحسن في زهوه وفي استكباره ؟
من أذاب الضياء فيه ومن تغلغل شجو الهوى على أوتاره ؟
من رمى من أصاب من صور الفتنة من زرها على أزراره ؟
حرت : ما الحب ؟ ما الهوى ؟ ما التعابير اللواتي بين أسرارها ؟
نظرة كالصلاة . . زلني إلى الله وقربي لعزه واقتداره

وهكذا كانت نفس التيجاني تلوح بالله تعالى كلما شاهدت الجمال لأنها تعتقد

أنه وسيلة إلى عبادة الله ، والتسبيح له ، واللجوء إليه وهو في هذا الشعور
يرقى إلى مصاف الشعراء المتصوفين الذين قادم الحب إلى أعلى مراتب السمو
الروحي . على أن نفس التيجاني كانت تموج بالأسى والألم ، أو البهجة والفرح
وتضطرب فيها العواطف وتصطبغ . . يقول الشاعر :

نفسى تطاير كالشعا ع وتستحيل إلى أنين
وتذوب وجداً في صبا بها وتخت كالأنين
وترف في وجه الحياة وبين طيات السنين
كما يقول في موضع آخر :

هي نفسى من الندى قطرات لم تنلها يد الزمان بخلع
هي في صفحة الشباب قوى نرخر بالحب أو تموج بسخط
هي قسطى من السماء فما أضى ع في العالم الترابى قسطى

وهذه الحيرة التى تراءى فى شعر التيجانى وهذه الرنة الحزينة التى تشيع
فى أياته هى التى أضفت الجمال على فنه وجعلته ينبض بالحياة ويجيش بالشعور
ويحقق بالوجدان ولم يجعله معرضاً للصور المرشاة التى لا حياة فيها ولا روح
إنما جاء كل بيت من أياته وكل مقطع من مقاطع شعره بفكرة جديدة
وبإحساس خاص .

وكانت صور الطبيعة فى شعر التيجانى حافلة بالمشاعر ، كما فى قصيدته
« فى محراب النيل » التى جاء فيها :

أنت يا نيل ياسليل الفرا ديس ، نيل موفق فى مسابك
ملء أو فاضك الجلال فمرحى بالجلال المفيض من أنسابك
حضنتك الأملاك فى جنة الخلد ورفت على وضىء عبابك
وأمدت عليك أجنحة خضرا وأضفت ثيابها فى رحابك
فتحدرت فى الزمان وأفرغت على الشرق جنة من رضابك

بين أحضانك العراض وفي كفك تاريخه وتحت ثيابك
عجياً أنت صاعداً في مراقبيك لعمرى أوها بطاً في انصبابك
مجتلى قوة ، ومسرح أفكار ومجلى عجيبة كل ما بك

وامتاز التيجاني كذلك بصورة المتابعة الحلاقة وتجسيمة المعاني واختياره
للتراكيب الموسيقية الجذابة كالألحان المبهمة والشمس الحمرية والقمر العازف
والضفاف السحرية وحجرات الذهب ومبائك الفضة وما إلى ذلك من عبارات
نهري يقول في قصيدة « مدينة الخرطوم » :

مدينة كازهرة الموثقة	تنفح بالطيب على قطرها
ضفافها السحرية المورقة	يخفق قلب النيل في صدرها
محسبها أغنية مطرقة	تغمها الحسن على نهرها
مبهمة ألحانها مطلقة	رجعها الصيحه من طيرها
وشمسها الحمرية المشرقة	تفرغ كأس الضوء في بدرها

ويقول الأستاذ عبدالمجيد عابدين أحد أساتذة النقد بكلية غوردون بالخرطوم :
« إن الشاعر التيجاني استوحى هذه العبارات من الشاعر على محمود طه » ونحن
لا نستبعد هذا القول لأن من يتأمل في شعر على محمود طه يجده حريصاً على أمثال
هذه الصورة التي تمتع الحواس والأذهان .

وكان الشاعر يعتقد أن جمال الشعر وروعة الصور الأدبية لا تخضع لشيء
سوى الذوق ومن أجل ذلك أنكر على النقاد حرصهم على استخدام العقل
في كل ما ينقدون وقل في إحدى مقالاته بمجلة « الفجر » السودانية (عدد نوفمبر
سنة ١٩٣٤) :

« إذا توقف فهم الأشياء في الذوق وانقسمت الأنفس في داخلها إلى مذاهب
وشيعة وتناصرت العواطف والأعصاب وتفاعل العقل والقلب ، واضطرب

الوجود الداخلى وتعددت مقاييسه ، وتبدلت نفوس وشطت نفوس ، وكان جفاف
وكان اين ، وكان تناكر وكان ائتلاف . هنالك يصبح سلطان العقل ضيقاً محدوداً
لا أثره في حكم صدره أو أمر يديه وإلا كان سادراً في ضلاله متى حاول أن يقف
من الذوق موقف الهيمنة والسلطان . وهل يمكن أن يكون الذوق شيئاً تتحكم
فيه أقيسة المنطق أو ضرباً من العلوم النظرية التي يخضعها العقل لسلطانه فينفذ
منها إلى أقصى ما تصل إليه أطرافها من دقة وعمق ؟ لا لن يكون ذلك ولن تحلم
القوى العقلية نفسها أن تستحيل يوماً إلى قوى روحية بحتة .

سم يوجه التيجاني أشد عبارات اللوم لهؤلاء النقاد الذين يحاولون أن يخضعوا
الذوق لأحكام العقل ومقاييس المنطق وحدود العلم ، ويرى أنهم يظلمون الشعر
الحديث ومناهج الشعر الحديث فينظرون إلى الحركة الأدبية نظرة شك
وارتياب .

وصور التيجاني في شعره الحياة السودانية تصويراً صادقاً صريحاً ومثال ذلك
قصيدته في « الخلوة » أو « الكتاب » التي تعرض فيها لفترة من فترات
صباه فقال :

هب من نومه يدغدغ عيه نيه مشيحاً بوجهه في الصباح
ساخطاً يلعن السماء وما في الـ أرض من عالم ومن أشباح
حنقت نفسه وضائق به الحيلة واهتاجه بفيض الرواح
ومشى بارماً يدفع رجليه هـ ويكي بقلبه الملتاح

فهو في هذه القصيدة يصور حالة الصبي الذي يستيقظ من نومه وفي عينيه
الكرى فيسعى متثاقلاً متباطئاً كارها لهذه اليقظة ساخطاً على حياته ، متبرماً
بنظام معيشته ، راغباً في النوم ، غير أنه يجر رجليه جراً حتى يبلغ الخلوة التي
يتعلم فيها مع إخوانه الصبية وهو — في واقع الأمر — يكي وينتخب من
قلبه الحزين .

كما صور التيجاني عادات السودانيين في بعض شعره ، وجلا التيجاني مناظر الطبيعة في السودان ، وتعد قصيدته في جزيرة «توتي» — وهي جزيرة تقع شمالي الخرطوم وتحدها أمدرمان من جهة الغرب والخرطوم البحري من جهة الشرق — من أبدع ما نظم التيجاني من شعر حيث صورها تستقبل أضواء الصباح باسم وهي راقدة في حضن النيل الجميل ، ينبعث منها أريج عاطر ، وشذى فواح ، وتشدو البلابل على أفنانها وترنم بين أدواحها .

يا درة حفها النيل واحتواها البر
تعا الدجى وتغشاك في الأسرة فجر
وطاف حولك ركب من الكراكي غر
كم ذا تمازج فين على يديك وسحر
ينخور ثور وتغور شاة وتنهق حمر
والبهيم تمرح والزرع مونق مخضر
تجاوب اللحن والطحن والثغاء الحر
وهب صوت النواخير ، وهو للشجر مر

وتراءت في شعر التيجاني فضلا عن هذه الصور الرائعة في وصف الطبيعة صور وطنية باهرة تأخذ النفس وتأسر القلب ومن ذلك قصيدته المسماة « ثورة » التي عبر فيها عن شكاته الصارخة وتعرض فيها لذكريات الطفولة والصبا وما تغرمه هذه العهود الجميلة من حب الوطن حتى إذا ما انتهى من ذلك عبر عن ثورته على بني وطنه لعدم تخلصهم من نير الأجنبي فقال :

وطنى في الصبا الدى والتما ثيل ونقى ومن أحب وخدنى
هذه يا أبى تصاور ما تب رح دنيائى أو تزايل كوني
يمنع الغاب مزهرى ويشيد الرم لى عرشى ، ويبعث اللهو أمنى
هى دنيا الصبي لا جنة الشيخ تفيض النعيم من كل لون
قف بنا نملأ البلاد حماسا وتقوض من ركنها المرجحى

هي للنازحين مورد جود وهي للأهلين مبعث ضن
يستدر الأجانب الخير منها والثراء العريض من غير من
أمطرهم بلادنا فتعالى ابن « أثينا » واستكبر « الأرمني »

وصفوة القول أن التيجاني يوسف بشير يعد من أرق شعراء العصر الحديث
وقد أخذ هذه الشاعرية عن فطرة وموهبة ، ولولا أنه عاش فترة قصيرة من
العمر ومات وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، لكان له أثر أكبر في تاريخ
الأدب العربي الحديث .



النَّيْلُ فِي الشَّعْرِ السَّوَدَّ إِلَى

كان النيل ولا يزال ملهم الأدباء ووحى الفنانين وبعث الشعر ومنبع الرزق والخير . فالنيل يجتاز جنوب السودان كما يجتاز وسط السودان وشمال السودان وتأثيره في كل منطقة من هذه المناطق كالضوء من الشمس والعبير من الزهور ينشر الخصب حوله .

فهو في جنوب السودان يكون حوض بحر الجبل والزراف والغزال ويتألف معظمه من سهول منبسطة يحف بها من الجنوب السفح الشمالى لبعض البحيرات الغربية لهضبة الحبشة وصبوب الغرب حتى المرتفعات التى تفصل حوض الكونغو عن النيل .

وتربة هذه المنطقة على نوعين ففي الجهات الجنوبية الغربية تكثر التربة الطينية الحمراء وهى أوفر خصباً من تربة هضبة البحيرات أما تربة الحوض فصالحية سوداء رقيقة الحبيبات تكثر بها الناقع .

هذا هو الإقليم الذى يكونه النيل في جنوب السودان ، أما ما يكونه في وسط السودان فهو حوض البحر الأبيض (الحوض الأدنى للبحر الأزرق) ثم إقليم دارفور وكردفان وجبال نوبا ثم إقليم شمال السودان ويطلق اسم النيل النوبى على الجزء الممتد من الخرطوم إلى أسوان في القطر المصرى ويمتاز النيل النوبى بشدة الانحدار ولا سيما في مناطق الجنادل والخنادق .

وقد كان النيل في جميع هذه المناطق الطبيعية على اختلاف حظوظها من الخصب والحياة مصدر إلهام ووحى للأدباء والفنانين .

وقد كتب التيجانى يوسف بشير في محراب النيل يقول :

أنت يا نيل يا سليل الفرا ديس نيل موفق في مسابك
ملء أوقاضك الجلال فمرحى بالجلال المفيض من أنسابك

حضنتك الأملاك في جنة الخلد ورفقت على وضيء عبابك
وأمدت عليك أجنحة خضرا وأضفت ثيابها في رحابك
وأخذ التيجاني يوسف بشير بعد ذلك يصور تلك الأعجاء التي أحاطت
بوادي النيل . ويعطينا التيجاني صورة وضاعة عن جماله تأخذ بمجامع القلوب
فهو يجد في كل قطرة منه سحراً وزهراً مشوراً وهو يجد في اسم النيل حروفا
تشع منها بواعث الحياة حتى إذا ما انتهى من ذلك التصوير أخذ يخاطب
النيل قائلا :

أيها النيل في القلوب سلام الخلد وقف على نضير شبابك
أنت في مسلك الوفاء وفي الـ أنفاس تجري مدويا في أنسيابك
وقد كتب الأستاذ عبد القادر إبراهيم قصيدة على غرار هذه القصيدة سماها
« أنت يا نيل » استهلها بقوله :

أنت يا نيل حبذا إشراقك ومعين تحفه أشواقك
ونعيم وروعة وجلال وخلود تضمه آفاقك
وهبات تمدها وحياة وسماوات أحاطهن رواقك
حبذا كل ما بساحك ينمو من جمال تضمه أطواقك
نحن أبناء ضفتيك وإنا والذي علم الهوى عشاقك

وقد أفاض عبد القادر إبراهيم بعد ذلك في وصف الطبيعة على النيل فصور
للروج الخضر والاضفاف والسواثم وهي ترعى بين جنباتها والطيور والبلابل
وهي تصدح في أرجائها إلا أنه بعد ذلك أخذ يعتب على النيل لأن المستعمر
الدخيل يرتوى بمياهه ويعيش على ضفافه ويتمنى أن يتخلص وادي النيل من
هذا القيد ليعيش حراً كريماً .

وكتب الشاعر السوداني عبد الله عبد الرحمن قصيدة في وصف الطبيعة منها
قوله يصف النيل في عاصمة النيل الأزرق :

رف فيه النبات حتى كأنى من وراء الزجاج أرنو إليه

وكان الدخان من جانب الشط مشيب يالوح في عارضيه
يتلقى الأديب منه قوافي الشعر رقراقة على حافتيه

وظلال الجيز والطلح والسدر ترمى على المروج الوسيعة
ووجوه النبات تحاول وتبدي صورا للحياة كانت بديعة
ليس أدعى إلى السرور كروض خلعت حسناتها عليه الطبيعة

وهناك قصائد جميلة حافلة بالتشبيهات البديعة والاستعارات اللطيفة والصور
المتلاحقة ، كتبت على غرار القصائد الأندلسية التي عرف بها ابن هانيء وابن
خفاجة الأندلسي ومن لف لفها من شعراء الأندلس .

وصف شاعر جبلا شاهقا يجمع على الشاطيء بدثرة فقال :

قائم فوق شاطيء النهر ذاهل عن حوادث الدهر
اتصلت بالسما قمته ودونها عز مطلب الطير
تلتف أشجاره وقد قصرت من حوله كالجنود في الأسر
كأنه قد أقام محتفظا على رمال تلوح كالقبر

واستخدم شعراء السودان الغزل وارتشفوا كثوس الحب دهاقا على شطآن
النيل غير أن الغزل عند بعضهم يمزج بالفخر امتزاجا فالشاعر لا يغفل عن أن
يذكر المحبوبة بأنه ابن النيل وابن النيل ابن للفر الميامين كقول صالح عبد القادر :

ماذا رأت عينك هذى لتي سوداء وهى هوى العيون السود
وأنا ابن وادى النيل لو فتشتني تجدين في بردى بأس أسود
ويروقي ورد الحدود ولقته الرثم المهفّف وابتسام الغيد
ويلد لي حلو الحديث وطيه وسماع شادية ونعمة عود

ولقد كانت المشاريع الكبرى على النيل ملهمة لكثير من الشعراء نكزان
منار الذي تم إنشاؤه في سنة ١٩٢٠ ويقع عند بلدة مكوار على بعد ثمانية
كيلومترات من منار والغرض من بنائه هو رى أراضي الجزيرة بالسودان ،
الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق والأصل في المشروع هو توفير المياه

لرى ٣٠٠ ألف فدان ولكن المساحة تضاعفت فى السنوات الأخيرة إلى ما يزيد على ثلاثة أمثالها وقد وقف الشاعر السودانى أبو بكر محمد عليم صاحب كتاب الدر الخزون فى شرح رسالة ابن زيدون وقفة مشهورة على هذا المشروع فقال :

ألا هل رأت عينك مكوار بعدما أقامت يد الإصلاح فى نهري السدا
كأن سليمان الحكيم أقامه بتسخير جن يسردون الصفا سردا
يظل زمام النيل طوع مراده يكلفه جزرا ويرمله مدا
وصير من أرض الجزيرة روضة تخال بساطا سندسيا بها امتدا
لقد عد فرعون الكنانة نفسه إلها لأن النيل من تحته امتدا
ولو عاش حتى شاهد اليوم ما أرى وما أثمر الحزان أزرى بما عدا

وقد كان أثر النيل فى الأدب الشعبى لا يقل عنه فى الأدب العربى الفصيح ،
وشاع فى الأمثال والحكم فقالت بنت مكاوى :

إن طال الوبر واسيه بالجزرة واما عم نيل ما فرخت وزه

وتشير القصيدة التى دنها البيت السابق إلى أن الأتراك تجاوزوا كل حدود العقول ، ولهذا يجدر أن يأخذوا درسا قاسيا لقاء ما قدموا للبلد من تحقير وإذلال فلا بد من ثورة عاجلة تضع الأمور فى نصابها وتبتر يد الطغيان بترا وتحز متأفته كما تحز السكين الوبر وكذلك النيل . . إذا لم يصخب عبابه وإذا لم تجش أمواجه ويتناثر زبده وتمتلئ شطآنه فكذلك لن يفرخ الأوز . وهذا البيت هو أحد الأبيات التى قالتها امرأة تدعى بنت مكاوى تعرض للمهدى على قلب الحكم وهو وقتذاك يستجمع حوله من الشيعة والأنصار من مهد لحركة المهديّة الثائرة ومن مكن له من الجهر بدعوته الجريئة لتخليص البلاد من رهبة الاستعباد التركى وظلم الأتراك واستعبادهم .

كما كان أثر النيل باديا فى الأغاني الشعبية فقال سيد عبد العزيز فى قصيدته « يا أنة المجروح » .

كما قال الشاعر انقوى السيد مصطفى بطران في قصيدته (يا سلام يا جميل)
التي يلتمس فيها من صاحبه أن يستيقظ والناس نيام والكرى دلم بمعاقد الأجفان
ليتهادى معه على ضفة النيل وليستمتعا معا بتغريد اليلالي :

میلہ پیشچیک و من شذاھا بحبک کلہین نفحة

فارقت مصر ذاكرا أرجاءها والهرما
والنيــــــــــــل والجزيرة الفيحاء والمقطا
ربوع خير طالما أسدت إلى أنعم

التصوف في الشعر السّوداني

قيل : إن الصوفي من صفا قلبه لله . وعرفه بندار بن الحسين بقوله : الصوفي من اختاره الحق لنفسه فصافاه وعن نفسه فبراه وقيل بعضهم : الصوفي من لبس الصوف على الصفا ، وأطعم الهوى ذوق الجفا ، وكانت الدنيا منه على القفا ، وسلك منهاج المصطفى . وعرفه سهل بن عبد الله التستري : الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر .

وإن المتطلع إلى الأدب السوداني يجد أن هناك كثيراً من الشعراء الذين نهجوا منهج التصوف في شعرهم . وقد انتشرت الصوفية في أيام الفونج فانتشرت المدايح في الشعر الشعبي ولم تتحقق في نشأة تلك المدايح صور البطولة في الشعر فحسب بل تحققت في الغناء والترنيم كذلك ، فصاروا يتغنون بهذه المدايح طبقاً للغناء الصوفي المسمى « الكريز » ويصف أحد المؤرخين الكريز بقوله : إنه صدى ذكر أهل الطرق بالأصوات العالية وهم يرونه حسناً يثابون عليه ، والعلماء يجعلونه من البدع المحرمة والله أعلم بالصواب فقد عمله قوم صالحون وتركه قوم صالحون .

وكما انتشر التصوف في الشعر الشعبي انتشر في الشعر الفصيح ولم يكن الفارق بين الشعرين مقصوراً على اللغة وحدها بل كان متمثلاً في منهج الشعر نفسه وسلوك الشاعر في قصيدته . فالشعراء الشعبيون كانوا لا يحرصون على شيء قدر حرصهم على تصوير بطولة الشيخ تصويراً معجباً غريباً ينزع إعجاب الناس وتقديرهم أما الشعراء الذين كانوا يقرضون الشعر باللغة الفصحى فإنهم كانوا لا يرضون على شيء قدر حبهم اقتفاء السلف الصالح والتمثل بشعرهم ومعارضة قصائدهم وقد عارض الشيخ موسى الصوفي تائبة ابن الفارض فقال :

سلام على قوم إذا ذكر اسمهم تهتك أمستار إليهم برجفة
تلاأت الأنوار من نحو خالقي بوقت قيامي أو جلوسى بنحوة

كما عارض الشيخ طاهر المجدوب ميمية البوصيري .

فقال :

هل ضاء برق دجى الأسمار من إضم أم نور ليلى بدا ثغراً لمبتسم
أم تلك عين الها تمشى على وهن ترمى بلحظ عيون كل ذى سقم
وقد لجأ الشعراء السودانيون المتصوفون إلى تشطير شعر السلف الصالح كما
كتب التيجانى يوسف بشير الشاعر الحديث قصيدة رائعة بعنوان « الصوفى
المعذب » جاء فيها :

هــ هذه النيرة كم تحمل فى العالم سرا
قف لديها وامتزج فى ذاتها عمقا وغورا
وانطلق فى جوها المملوء .. إىء أنا وبرأ
وتنقل بين كبرى فى الذرارى وصغرى
تر كل الكون لا يفتر تسيحاً وذكرى

وقد أكثر الصوفيون المتأخرون من الشعر الصوفى والمدايح النبوية التى لم
تنشأ إلا بعد عصر الفونج حيث نشطت فى ذلك العهد الدعوة الإسلامية وانتشرت
الرغبة فى نشر الإسلام ودخل الناس أفواجاً واستقبل الفونج الإسلام استقبالا
حسنا وقال «عمارة» ملكهم للسلطان سليم العثمانى : إنى لأعلم ما الذى حملك على
حربى وامتلاك بلادى فإن كان لتأييد دين الإسلام فإنى وأهل مملكتى عرب
مسلمون ندين بدين الله وإن كان لغرض مادى فاعلم أن أكثر مملكتى عرب
بادية وقد هاجروا إلى هذه البلاد فى طلب الرزق ولا شىء عندهم تجمع منه
جزية سنوية .

وقد كان الحجاز منبعاً للحركة الدينية العلمية كما كان الحجاج السودانيون
يشجعون علماء الحجاز على الرحلة إلى بلاد الفونج وكان هؤلاء العلماء لا يألون
جهداً ولا يدخرون وسعا فى نشر التعاليم الإسلامية والتعمق فى الدراسات الدينية

وقد بلغ التدين ببعضهم درجة التصوف ومحاربة أهواء النفس واتباع السنة والزهد في الدنيا ومتاعها والاتقطاع إلى الله ودوام التفكير .

كما أن مصر أسهمت في نشر الدين الإسلامي بشكل ملحوظ وكان الأزهر الشريف قبلة للأنظار وكان الملك « بادي الأول » المعروف بسيد القوم سنة ١٦١١ م على صلة بعلماء مصر وكان يكرم وفادتهم ويسرف في الاحتفاء بهم . وكذلك كانت الوفود الإسلامية تأتي من المغرب والعراق والحجاز وقد حضرت هذه الوفود إلى السودان بما لها من معتقدات دينية صوفية فغرست في نفوس السودانيين حب التصوف والفناء في الله .

وقد اهتم الصوفيون المتأخرون بالمدايح النبوية فكانوا ينظمون السيرة ويؤلفون دواوين من الشعر بأكلها في تلك المدايح كما فعل السيد محمد عثمان الميرغني في ديوانه « النور البراق في مدح النبي الصادق » والشيخ أبو القاسم أحمد هاشم في ديوان « روض الصفا في مدح المصطفى » والسيد أحمد بن إدريس في ديوان « رياض المديح » . وكانت هذه المدايح النبوية تفيض ورعا وتقى وتسيل ابتهاجا إلى الذات العلية الكريمة . قال الشيخ إبراهيم أحمد الهاشم :

عمر فؤادك بالتقى يا صاح	فعاك تحظى بالني يا صاح
واذكر ذنوبك في الصباح وفي المساء	وأطل بكاء ولا تخف من لاح
وكن الرقيب على عيوبك واستعد	قبل المات بغدوة ورواح
يا سوء حظي من عظيم جرائمى	وتراكم الغما وضوء مزاحى
يا أفضل الرسل الكرام ويا منى	روحي وأحشائي وكنز صلاحى
أنت الذى لولاك ما كان الكمال	ل مشاهدا بعشية وصباح
أنت الذى بك أشرقت شمس الضحى	وبك القلوب تير كالصباح

وقال الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم يمدح الرسول :

أحمد ولأنت أكرم مرسل وأحق من يمدحه يتقرب

أحمد ما أت إلا رحمة وبشارة لك كل خير ينسب
وعليك صلى الله ما هبت صبا أو ما ترنم في مدحك مطرب
وعلى صحابتك الأماجد كلهم ما تم بدر أو أضاء الكوكب

وقد جعل الصوفيون شعرهم مادة للفخر كما جعلوا الفخر مادة لبث تعاليمهم
الصوفية وأذكّارهم ونبذهم للحياة ، كما في قول أحد شعرائهم :

يا واقفاً عند أبواب السلاطين ارفق بنفسك من هم وتحزين
إن كنت تطلب عزاً لا فناء له فلا تقف عند أبواب السلاطين

يرجع تاريخ الإسلام في جنوب السودان إلى عام ٢٢ هجرية وسنة ٦٤٢
ميلادية عندما قام عبد الله بن أبي السرح على رأس عشرين ألف مقاتل ، ومنذ
ذلك العهد أخذ الإسلام ينتشر في هذه البلاد وتقوى الدعوة إليه إلى أن تم الفتح
العربي للنوبة السفلى سنة ١٣١٨ وللنوبة العليا سنة ١٥٠٥ وعم الإسلام وأصبح
دين الغالبية الساحقة من سكان هذه البلاد .

وقد أثرت العقائد الإسلامية في الشيخ حسن الزهراء والشيخ الغرير والشيخ
أبي القاسم أحمد الهاشم والشيخ البنا الكبير فقد كانت معظم قصائدهم في المدائح
النبوية وكان معظم شعرهم في ذكر شمائل الرسول وتاريخ غزواته وانتصاراته .

هذا شيء عن التصوف في الشعر السوداني ومنه نستطيع أن نبين أن هذا
التصوف كان تارة يجري على منهج الصوفي بأدق معاني هذه الكلمة ، وتارة كان
زهداً وورعاً وتقى ينتشر في شعر الأدباء وله طابع عذب جميل يحرك المشاعر
ويصل إلى أغوار القلوب .



من خفقات الشعر السوداني في ذكرى العدوان الثلاثي

في يوم الاثنين ٢٩ من أكتوبر عام ١٩٥٦ توغلت قوات العدوان في الأراضي المصرية وعلى مقربة من قناة السويس بمسافة تبلغ نحو مائة ميل ، وفي يوم الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر عام ١٩٥٦ سلمت الحكومتان البريطانية والفرنسية إنذاراً مدته اثنتا عشرة ساعة إلى إسرائيل ومصر ومعرفة أن هذا كان باتفاق سابق مع إسرائيل — لوقف جميع الأعمال شبه الحربية في البر والبحر والجو وسحب جميع القوات الحربية المصرية إلى مسافة تبعد عشرة أميال عن قناة السويس وقبول احتلال قوات بريطانية وفرنسية لمراكز رئيسية في بور سعيد والاسماعيلية والسويس .

وتلا هذا الانذار الهجوم المسلح على مصر ، الذي اشتركت فيه قوات المظلات ومدافع الأسطول والأسلحة الثقيلة والطائرات النفاثة وما يزيد على مائة ألف جندي من مختلف أسلحة الجيش الفرنسي والبريطاني .

وقامت الحملة بهجوم شديد غادر على بور سعيد بالطائرات ومدافع الأسطول وجنود المظلات ، إلا أن الشعب البورسعيدى الباسل وقف في وجه الاعتداء الوحشي في عزيمته وثبات وظل يقاوم الغزاة بمقاومة عنيفة متواصلة .

ولم يمض الأسبوع الأول من نوفمبر حتى أعلن وقف إطلاق النار ، وانسحبت قوات العدو إزاء استنكار الرأي العام العالمي كله وتلبية لرغبة الأمم المتحدة في نشر السلام وفراراً من الهجوم العنيف الذي شنه أبناء البلاد . انسحبت قوات العدو إزاء هذا كله تَجَرُّ أذيال الخيبة والفشل على حين تحقق النصر لمصر بمشيئة الله تعالى .

وقد ألهمت هذه المعركة مشاعر الأدباء والشعراء والفنانين فجادت قرائنهم بالعذب من الشعر والجميل من النشيد والرائع من البيان .

واشترك الشعراء السودانيون في التعبير عن مشاعر أبناء البلاد ، ونظم بعضهم قصائد جيدة من عيون الشعر العربي .

ولعل قصيدة الشاعر السوداني « إدريس محمد » تصور مشاعر أبناء السودان تصويرا صادقا واضحا ، وهو يقول في مطلعها :

بي ما بصدرك يا مصرى من لب وشيجة الحق والتاريخ والنسب
عم البلاد ذهول لا تحده حدود أرض ومشوب من الغضب
هذا الدم الثائر المحتاج نبثه نارا ونحرق فيه كل مغتصب
ومضى في قصيدته يصور تلك الأحلام التي تراءت للغزاة وكيف داسوا قداسة
الحق تحت أقدامهم فسالت دماؤهم على الأرض ، وسارعت الأمم الحرة لنصرة
البلاد لما بينها وبين مصر من صلات ومن استنكار للظلم واستعباد للشعوب .
ومضى الشاعر السوداني « إدريس محمد » يصور ما يربط الجمهورية العربية
المتحدة بالسودان وغيره من الأقطار العربية فقال :

نازلت يا مصر من راموك واعتسفوا ونحن بين شديد السخط والعجب
كل العروبة لما مس إخوانهم بأس المغير سعوا في نخوة العرب
عروبة وحدة الإحساس تجمعها كما التقت في اتحاد الأصل والحسب
ونحن يا مصر شعب من خلائقه بغض التجنى ورثناه أبا لأب
وكم يد لك في ماضى الكفاح بنت لنا الحياة فما تنساك في كرب
ولما انتهى الشاعر من تصوير منزلة هذه الرابطة القوية التي تجمع بين
العرب وتدفعهم إلى التكاتف عند اللزمات والخطوب ، صور بطولة بور سعيد
فهى أنشودة مليئة بالبطولة والحماسة والتضحية .

وفي أسلوب متخفف يفيض قوة مضى الشاعر السوداني إدريس
محمد يقول :

وبور سعيد نشيد ملء صفحته بطولة وحماس دافق عربى
وكل ما كنها آساد معركة وطفلها في الوغى ينقض كالشهب

ما راعها زاحف يصلى شوارعها ولا الردى هابطاً من مريض السحب
ولا البوارج فوق البحر تقذفها والنار تنصب عن بعد وعن كشب
ولا حياض دم المستشهدين بها وما تبدى من الأطلال والقطب
ما راعها بل أثار النار في دمه فأوردت ظالمها شر منقلب

وهكذا كانت قصيدة الشاعر إدريس محمد صورة صادقة للمودة شاهدة على
إخلاص أبناء السودان الشقيق للقطر الشقيق مصر ، وعلى مدى تغلغل روح
القومية العربية في النفوس . القومية العربية التى هى دماء تمزج بالدماء ، وهى
أنفاس تختلط بالأنفاس وهى روح تذوب فى الروح . وهى بعد هذا كله مبدأ
ودن لا يتخلى عنه العربى إلى يوم الدين



فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٥	المدائح النبوية في الأدب السوداني
١٣	معلقة سودانية
٢١	الجمال في شعر سعيد العباسي
٢٧	الحنين إلى مصر في شعر العباسي
٣٥	خطرات في شعر عبد الله عبد الرحمن
٤١	شاعر سوداني يمجّد ذكرى أبي الطيب المتنبي
٤٧	جيل جديد من الشعراء السودانيين
٥٣	الرومانتيكية في شعر الشاب والبيجاني
٦٣	أثر الثورة المصرية في السودان
٦٩	الغزل في الشعر السوداني
٧٧	بين الأمثال المصرية والسودانية
٨٣	رحلة إلى السودان
٩١	محجوب ثابت ورحلته إلى السودان
٩٧	شاعر الأفطار العربية في السودان
١٠٣	كتاب جديد لباحث من الخرطوم

الموضوع	الصفحة
أثر النهضة الأدبية الحديثة في السودان	١١٣
شوقي والسودان	١٢٣
حافظ ورحلته إلى السودان	١٣١
نظرات في شعر التيجاني	١٣٧
النيل في الشعر السوداني	١٤٧
التصوف في الشعر السوداني	١٥٥
من خفقات الشعر السوداني في ذكرى العدوان الثلاثي	١٦١

